الحرب عبر التاريخ

الجزء الثاني

تأليف الفيلد مارشال

مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر





A HISTORY OF WARFARE

الجزء الثانى

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكليات العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
العلم العاشر والحادى عشر

التصديق بالنشر

كتاب المخابرات الحربية

رقم ن/م ث/٦/١/٢٠٢١

رقم الايدع دار الكتب ٢٠٢٦ لسنة ١٩٧٢

المطبعة الفنية الحديثة

٢٠ شارع الاصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١

الفهرس

تابع الفهرس

الفصل الخامس

التوسع الرومانى

الحشد فى فرق كاملة (أنظر اللوحة رقم ٧)

أننا نتحرك الآن إلى الأمام . . . نحو العصر الرومانى ، وتشير لنا القصة التى نحن بصددها إلى أن الرومان قد امتلكوا المقدرة السياسية والإدارية التى مكنتهم من تعزيز فتوحات قادتهم لصالح الجمهورية التى صارت فيما بعد أمبراطورية ، والجدير بالذكر بأن هذه المقدرة افتقرت إليها اليونان القديمة وسنرى أن كلا من التطور الاجتماعى والتنظيم العسكرى الرومانى قد أثر كل منهما فى الآخر بعمق لذلك أخذت روما تتحول من مجرد ولايه إلى امبراطورية ، ومن الممتع أن نلاحظ فى الحروب التى شنتها روما ضد خلفاء الاسكندر الأكبر استخدامهم للكتائب المشاة اليونانية فى أول الأمر ولكن ظهر لهم أهمية وفائدة القتال بحشد وبتشكيل مفتوح أكثر من التشكيل اليونانى المنظم ومن هنا ظهر أهمية القتال بفرق كاملة .

وقد لمعت روما فى عام ٧٥٣ ق . م كما تقول الأسطورة ، وكانت فى ذلك الوقت مجرد ولاية من بين عديد من الولايات ، ولكنها بعد مرور ٥٠٠ سنة سادت وسيطرت على شبه الجزيرة الإيطالية وبعد ذلك بـ ٧٥٠ عام حكمت كل غرب أوروبا ودول البحر المتوسط وكان ظهور روما كدولة بارزة فى أيطاليا شيئاً طبيعيا وليس حدثاً عرضياً كالمثل القائل « البقاء للأصلح » فكان هذا الشعب يؤمن بنفسه وأهمية الدفاع عن كيانه ، فأدى هذا إلى أن أصبح لرومان ذوى ميول حربية ونزعات عدوانية .

وعلى مر لقرون هزموا كلا من التسكانيين والفلشيين والسمنيين ، وصدوا هجوم الغال وردوهم على أعقابهم ، ولكن فى عام ٣٢١ ق . م هزم الرومان هزيمة منكرة فى كودين فوركس إلا أنهم انتقموا بالانتصار على أتحاد كل من الغال والسمنيين فى موقعة سنتينوم عام

٢٩٥ ق . م ، مما أعطى روما السيادة على إيطاليا الوسطى . وفى عام ٢٧٥ ق . م هزموا الأبيروس فى موقعة بينفنتوم وهذا حقق السيطرة على جنوب إيطاليا .

ولا نعرف سوى القليل عن الجيش الرومانى قبل القرن الرابع ق.م ويعتقد أن سيرفيوس توليومس ملك تسكانى ، قام فى القرن السادس ق . م ببناء أولى تحصينات روما مع تنظيمها لتكون قاعدة عسكرية . وأصبح الرومانيون دولة عسكرية ، فجميع الذكور ما بين سن ١٤ و ٤٦ يعتبرون صالحين للخدمة العسكرية أما الرجال ما بين ٤٦ و ٦٠ فيعتبرون صالحين للاستدعاء كاحتياط .

وكان لهم مجلس[1] يدعى للاجتماع فى ميدان مارس بواسطة النداء فى النفير ، وكان هذا الميدان يقع خارج أسوار المدينة . وكان المواطنون مقسمين إلى درجات . . . الفرسان وهؤلاء عبارة عن درجتين عليا وصغرى وهذا يتوقف على مسئولية الأفراد من حيث الخدمة ودفع ضريبة الحرب . وكانت الدرجات الصغرى تمثل القوة العسكرية الرئيسية وكان الأغنياء منهم يلبسون رداء الهوبليت الكامل مع خوذة برنزية ويسلحون بدرع واقية للصدر والأرجل وحربة وسيف ، أما الفقراء منهم ويطلق عليهم فيليت[2] .

وكان التكتيك المستخدم فى ذلك الوقت مقاربا لما يستخدمه الهوبليت ، أما الفرسان فكانوا عبارة عن مشاة راكبة فقط .

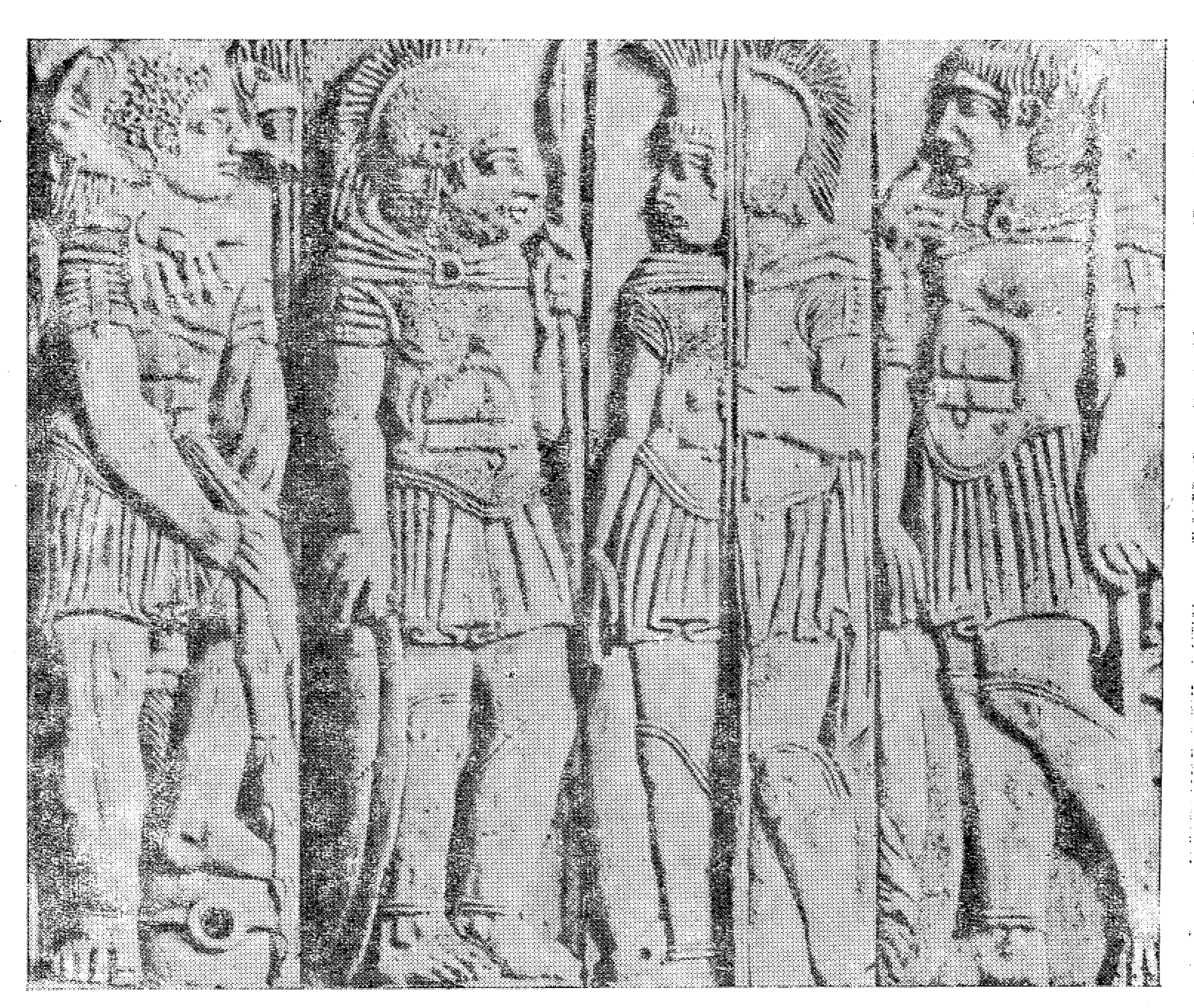
وكان على الرومان أن يبدأوا من جديد فى تكوين جيش متطور بعد الهزيمة الفادحة التى تلقوها على أيدى الغال عند نهر أليا عام ٣٩١ ق . م . وفى الجيلين اللاحقين وبوحى من ماركوس فيوريوس كامليوس أعيد تحصين روما كما أعيد تنظيم جيشها الذى كان مكوناً من المجندين من السكان وتدفع لهم الأجور عند القتال الفعلى .

وقد حلت الفرق الكاملة بدلا من الكتائب وأصبحت المشاة الثقيلة هى القوة الرئيسية للفرقة ، ولكن الفرقة كانت تضم فى تنظيمها مجموعات من الفرسان والفيليت .

(١) المجلس : — يقصد هنا مجلس يضم جميع الأفراد المتخصصين فى الحرب من جنود وصناع للسلاح والابواق وخلافة . « المعرب »

(٢) الفيليت : — هم جنود المشاة الخفيفة من المواطنين الفقراء وتسليحهم المقلاع والحجارة فقط بدون أى دروع . « المعرب »

(أ) (ب) (جـ) (د)



المشاة الرومانية فى القرن الرابع قبل الميلاد

(أ ، ب ، جـ) المشاة الثقيلة . (د) المشاة الخفيفة (فيليت) .

وتشكل الفرقة المشاة الثقيلة فى ثلاثة خطوط ، الخط الأمامى أو المقدمة والخط الرئيسى ثم خط المؤخرة وكل خط من هـذه الخطوط الثلاثة يضم عشر سرايا ، أما المشاة الخفيفة فتنتشر بين هذه السرايا ، وكانت هذه الفرقة توزع سراياها على شـكل مربع بحيث تغطى السرايا الخلفية الفواصل بين السرايا الأمامية ، وكان عمق الخط الواحد أربعة صفوف من الجنود . ويضم الخطين الأولين على ١٠ سرايا أى كل خط به ١٢٠٠ جندى بينما المؤخرة (الخط الثالث) تحتوى على ٦٠٠ جندى ، وتوضع الفرسان على الأجنحة .وكانت الفرقة بها ٣٠٠ فارس مشكلة فى ١٠ فصائل ، وفيما بعد ارتفع عدد جنود الفرقة المشاة حتى وصل إلى ٦٠٠٠ جندى عندما تم تجنيد أعداد كبيرة من حلفاء الأيطاليين .

وكان الجنود فى الخط الأول والثانى يحمون أنفسهم بخوذات نحاسية ودروع واقية للصدر بالإضافة إلى دروع[١] نصف أسطوانية مثلثة الشـكل ويتسلحون برمحين قصيرين وخنجر طويل وسيف[٢] طوله قدمان مزدوج الشفرة . وكان جنود المؤخرة يتسلحون بنفس الأسلحة ماعدا الرمحين وقد حل محلها حربتان . وقد تطور تسليح الفيليت فأصبح سيفاً ورمحين قصيرين ودرعاً مستديرة قطره ٣ أقدام ويلبسون فى رأسهم غطاء من جلد الذئاب . ومن المحتمل أن يكون الرومان نقلوا صناعة الرماح[٣] عن الغال . وفى بعض الأحيان كان هذا الرمح يقذف بمساعدة سير مثبت خلف مركز الثقل ، وعند تحرير هذا السير ينطلق الرمح طائراً فى حركة حلزونية فتزيد من مجاله ودقته ، وقد بطل العمل بهذا الجهاز فى القرن الثانى ق . م عندما لم تتطلب التـكتيكات سوى القذف القصير الذى لا يتجاوز ٢٥ ياردة . أما وحدات الخيالة فى الفرق فـكانت فقيرة التسليح ، فلم تتجاوز درعاً من الجلد وحربة وسيفاً .

---

(١) كان يصنع من طبقتين من الخشب ملتصقتين ببعضهما ، وعليهما غطاء من جلد القنب ، بينما الاطراف العليا والسفلى مكسوة بطبقة من الحديد حتى تقاوم السيوف الطويلة .

(٢) لقد نبع هذا السيف من أسبانيا .

(٣) الرماح : ـ طوله سته أقدام ذات رأس حديدى مدبب على شكل الشوكة حيث تغمد فى درع العدو ومن الصعب نزعها مما يؤدى إلى أعاقة العدو من أستخدام أسلحته « المعرب »

الفرقة المشاة فى الهجوم

وكانت الحكمة من تشكيل الفرقة على هيئة مربعات هى إتاحه المرونة فى الدفاع والسهولة فى الهجوم حتى يمكنها مواجهة المشاة اليونانية الصلبة أو جحافل الغال . ويبدأ هجوم الفرقة المشاة بدفع الفيليب لمناوشة العدو وتغطية تقدم المشاة الثقيلة ، وعندما تدخل قوات الخط الأول مجال المعركة تطلق رماحها ثم تلتحم مع العدو بالسيوف وخلال القتال تدعم قوات الخط الثالث قوات الخط الأول بالمقاتلين بدلا ممن قتلوا أو أصابهم الإرهاق وكان قادة الفرق مدربين على إحلال خط كامل محل خط آخر مع القيام بهجوم جديد ضد العدو ، أما إذا ساءت الأمور ، فتندمج قوات الخط الأول مع قوات الخط الثانى فى خط واحد ويتراجعوا خلال الفواصل بين مجموعات قوات الخط الثالث التى تقاتل فى ذلك الوقت وهى ثابتة . أما الفرسان فكانت تستخدم للاستطلاع والمطاردة ولم يكن لها دور رئيسى فى التكتيك الكلاسيكى للفرقة ، وفى الحقيقة كانت الفرسان تقاتل مترجلة وليس من على ظهور الخيل ، وقد استطاع الرومان تطبيق هذا الأسلوب بكفاءة نتيجة للتنظيم والتدريب العالى للقوات وكان يوضع فى الخط الأول الجنود المدربين من الشباب حتى تكون القوة الضاربة أكثر تأثيراً وتركيزاً ، بينما يوضع الرجال الأكبر سنا فى الخط الثالث ليكونوا بمثابة احتياطى للصفوف الأمامية عند الحاجة . وكان الرومانيون يقومون دائما بهجوم نهائى بقوات جديدة محتفظة بنشاطها فيتحقق النصر . وكان استخدام أسلوب الثلاثة خطوط فى الهجوم مفيداً جداً بالنسبة للروح المعنوية للجنود ، فهذا النظام كان يضمن ⅔ الجنود بعيدين عن منطقة الخطر لأطول وقت ممكن ، كما كان يعطى فرصة كافية للجبهة المهزومة للانسحاب بأمان .

وقد وصف فوللر الجيش الرومانى على أنه أعظم جيش دفاعى [١] فى التاريخ فكانت للفرقة المشاة معسكر محصن يقوم بدور المؤخرة لها ، وإذا دعت الضرورة كانوا يبنون معسكراً جديداً فى نهاية كل يوم حتى ولو كان ذلك على حساب إختصار وقت السير فى الصباح إلى ثلاث أو أربع ساعات حتى يستغلوا فترة بعد الظهر فى عمليات الحفر . وكان حجم وشكل المعسكر

---

(١) يقصد فوللر أنه كان أعظم جيش يقيم الخنادق والتحصينات أثناء القتال « المعرب »

يختلف تبعاً لطبيعة الأرض ، ولـكن فى الغالب يبنى على شكل مربع كبير وبدرجة تسمح باستيعاب فرقتين من المشاة ويجرى تحصينه بالأسوار والخنادق والمتاريس ، وكان الرومان يتحملون مشاقا فى بناء المعسكرات لسببين أولا : — لأنهم عرفوا قيمة الأمن والراحـة . فـكانوا يمضون معظم وقتهم فى تلك المعسكرات للتدريب والتمرينات الرياضية ليحافظوا على لياقتهم البدنية وينموا قدراتهم على الثبات مع الضبط والربط ، وكانت هذه الصفات ضرورية لتـكتيك الفرقة والتى كانت على أى حال صفات طبيعية فى جنود الرومان .

وثانياً : — عندما تخوض الفرقة القتال يجب أن يكون بالقرب منها منطقة محصنـة تستطيع الانسحاب إليها إذا ساءت الأمور ونتيجة لذلك لم تصل هزائمهم إلى حد الـكارثة . وكان جنود الرومان أثناء السير يحملون بخلاف أسلحتهم حملا ثقيلا يتضمن أدوات الحفر ومعدات الطهى . وكان غذاء الجنود الرئيسى داخل المعسكرات عبارة عن الخبز[1] ولم يحصلوا على تغذية جيدة ، بينما القليل جداً منهم كان يتناول اللحم .

القيادة

كانت قيادة الجيش فى يد قنصلين ينتخبان سنوياً وهما بصفة عامة من السياسيين وليس لهم دراية بفن القيادة العسكرية . وكان الغرض من هذا الازدواج الغريب فى القيـادة هو التقليل من احتمال قيام دكتاتورية عسكرية ، ولـكن كان هذا النوع يعتبر من الحماقة العسكرية لأن الانتخاب السنوى أدى إلى صعوبة استمرار سياسية موحدة علاوة على أن أعمال القيادة اليومية كانت تصطدم دائماً بحائط ضخم بسبب اختلاف وجهتى نظر القنصلين المنتخبين ، وكان يحل هذا المشكل بانتخاب قائد دكتاتورى لفترة الطوارىء .

وفى القصص الشعرية لروما القديمة روى ماكولى عن معركة بحيرة ريجيللوس عندما لم تسر الأمور كما ينبغى : —

« فى الأوقات العصيبة ، من الأفضل أن يتحمل شخص واحد المسئولية ، فيجب أن يختار قائد ديكتاتورى ليطيعه كل الناس ، وذلك لمدة ستة شهور فقط وليس أكثر » .

---

(١) كان الخبز غير مخبز ومصنوع من الدقيق ومطهى على حجارة ساخنة أو الجمر .

وتلك نصيحة ممتازة ، وربما تكون أكثر سهولة فى العـــالم اليوم ، على أن ينتخب ديكتاتور لمدة ستة شهور فقط .

ولم يكن لدى الرومان القدامى طبقة من الضباط الأرستقراطيين . وكانت السرية[١] هى الوحدة التكتيكية الرئيسية ويقودها قائدان[٢] . أما القيادة التكتيكية للفرقة فكان يسيطر عليها ويتحكم فيها الموثوق بهم من المحترفين والذين يفهمون رجالهم جيداً ، ويصف بوليبيوس هؤلاء القادة : —

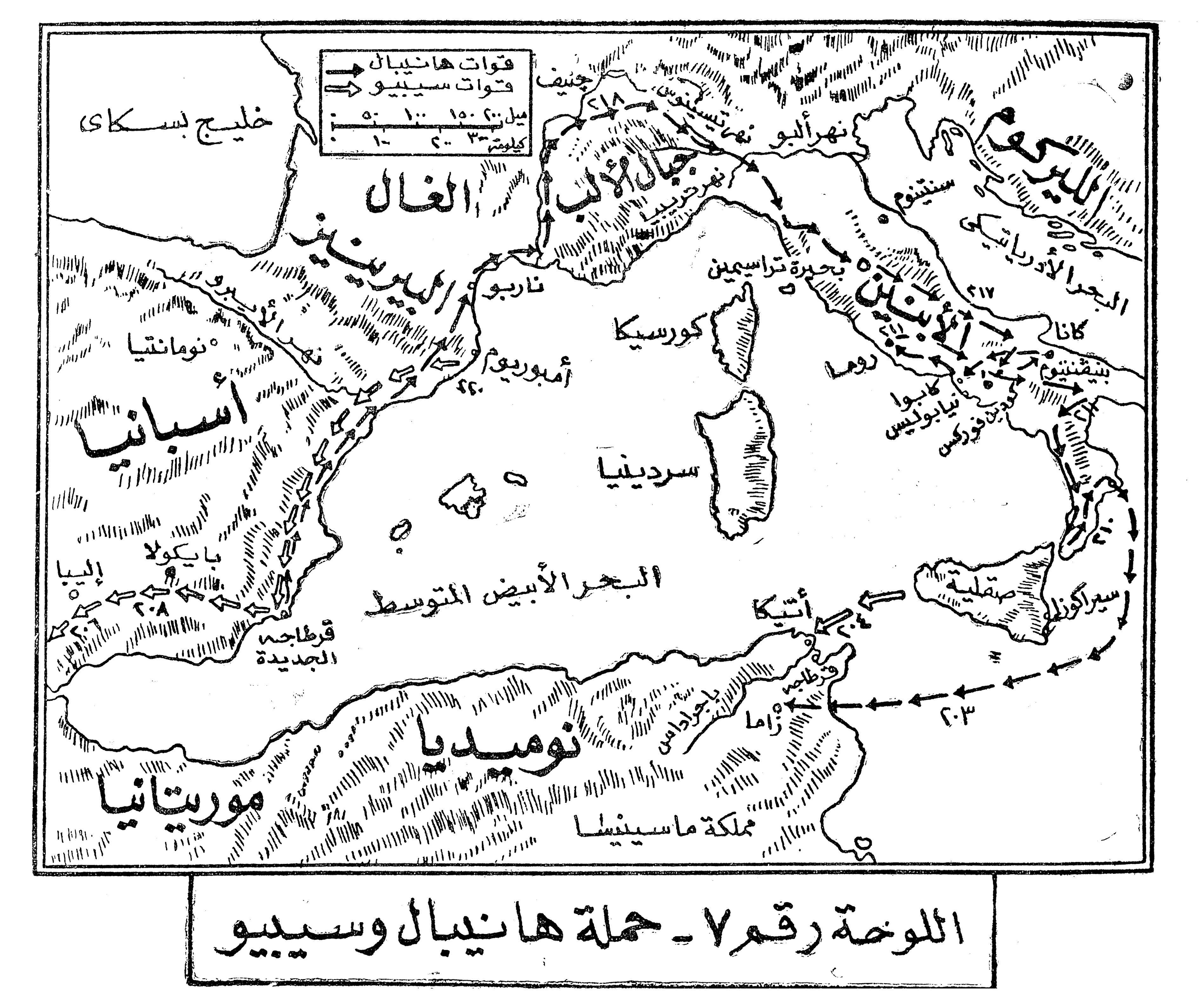
« ليسوا رجالا مغامرين أو متهورين بل كان لديهم الاستعداد الطبيعى للقيادة ، فيتميزون بالمثابرة والروح المتأصلة ويصمدون أمام جحافل العدو وضغوطه الساحقة ، ومستعدين للموت دفاعاً عن مواقعهم ، لقد كانوا مثابرين شجعان يفهمون الحرب جيداً وأنهـا عمل يجب أن يؤدى تماما . وكان السبب الرئيسى لنجاح روما فى معظم حملاتها أنها أنتجت ضباط صف من الدرجة الأولى وجنوداً ممتازين .

وهكذا كانت الفرقة مكونة من ثلاث خطوط من المشاة الثقيلة المسلحة بالرماح والسيوف ، ومدعمة بالمشاة الخفيفة والفرسان . وكانت المشاة مدربة على القيام بالأعمال الشاقة . وأصبح تنظيم الفرق المشاة ثابت لأكثر من ٧٠٠ عام بعد منتصف القرن الرابع ق . م ، بالرغم من أن بعض القادة الفرديين قاموا ببعض التغيير إلا أنه لم يحدث أى تغيير جوهرى فى تنظيم الفرقة المشاة ، وعندما ندرس حروب الرومان سيظهر لنا مواطن الضعف والقوة فى هذه الفرق .

هانيبال يغزو ايطاليا (أنظر اللوحة رقم ٧)

لقد انسعت مصالح روما السياسية والتجارية فى منتصف القرن الثالث ق . م حتى وصلت إلى التحدى لقرطاجة أغنى دولة فى الغرب فنشب أولى الحروب القرطاجية ما بين ٢٦٥ — ٢٤١ ق.م وأنتهت لصالح روما ، إلا أن قرطاجة فى عام ٢٢٠ ق م استعادت قوتها مرة أخرى فى إسبانيا ، وفى عام ٢١٨ ق. م قام هانيبال[٣] بعد عدة استفزازات بعبور البيرينيز[٤]

(١) السرية تتكون من ٦٠ إلى ١٢٠ جندى .
(٢) القائد عبارة عن جندى له خبرة طويلة ومن نفس الطبقة الأجتماعية للجنود
(٣) قائد قرطاجى عمره ٢٩ عاما .
(٤) جبال البرانس « المعرب »



اللوحة رقم ٧ - حملة هانيبال وسيبيو

لغزو إيطاليا وذلك لسببين أولهما بسبب النفوذ الإيطالى الذى أخذ يؤثر على التاريخ العالمى وثانيهما دورها القيادى للشرق والغرب .



هانيبال

والحرب القرطاجية الثانية (٢١٨ — ٢١٠ ق . م) جديرة بالدراسة لأن كل من قرطاجة وروما متساويين فى القوة، وكل منهما على يقين تام من أنه لابد من الانتصار وإلا سيدمر دمارا أبديا .

وقد زرت تونس التى تقع فيها أرض قرطاجة وشاهدت المدينة القديمة هناك وذلك بعد نهاية الحرب فى شمال أفريقيا عام ١٩٤٣ .

لقد درس هانيبال منذ الصغر الحرب والأسلحة ، وقام بدراسة شاملة لفنون الحرب الأغريقية والرومانية ، وقاد الجيوش لمدة ثلاث سنوات وكان واثقاً تماما أنه سيهزم الرومان وقد عبر جبال البرانس بجيش مكون تقريباً من ٤٠٠٠٠ مقاتل و٣٧ فيلا وكان معظم جنوده آتين من أنحاء متفرقة من أفريقيا وأسبانيا ، كما قام بإلحاق مجموعات أخرى وهو فى طريقه إلى إيطاليا من الغال ، وكان أغلب جيشه من المرتزقة ولم يجمعهم تحت قيادة واحدة سوى هانيبال وخوفهم من بطشه واحتمالات النهب والسلب خلال القتال . وتمثل القوة الرئيسية لجيش هانيبال من المشاة الخفيفة المسلحة بسيف قصير وحربة ودرع واق صغير ، بينما كان أكفأ قواته الراكبة من حملة الرماح النوميديين تحت قيادة القائد المحنك ماهربال . وقال بوليبيوس « لم يكن جيش هانيبال كثير العدد ، ولكنه ذو كفاءة عالية .. ولياقة بدنية ممتازة . »

وخلال فترة الحرب ، كان القرطاجيون يواجهون بأعداد كبيرة من الرومان الذين رفعوا عدد فرقهم من ٥ إلى ١١ ، وفى المراحل الأخيرة للحرب وصل عدد الفرق الرومانية إلى عشرين فرقة أى ١٠٠ر٠٠٠ مقاتل . ولم تكن استراتيجية هانيبال تهدف إلى تدمير روما ولكن ليفقدها فقط السيطرة على الحلف الإيطالى مع إجبارها على التعايش مع قرطاجة . وقد قال هانيبال « لم أحضر لأقاتل الشعب الأيطالى، ولكن لأحرر الإيطاليين من سيطرة روما . »

وتقدم هانيبال سريعاً حول البحر الأبيض المتوسط ، وخلال عبوره لجبال الألب تعرض

لهجمات رجل القبائل ثم لسقوط الثلج المبكر ما أدى إلى هبوط قوة جيشه حتى وصلت إلى ٢٠٫٠٠٠ من المشاة و ٦٠٠٠ من الفرسان ، وبعد اشتباك ناجح عند نهر تيسينوس استطاع هانيبال وجنوده من عبور نهر البو . وفى ديسمبر عام ٢١٨ ق . م عند نهر تريبيا حقق أولى انتصاراته العظيمة الثلاث فاستطاعت فرسانه وفيلته اجبار الرومان ودفعهم إلى نهر تريبيا مما أدى إلى تدمير ⅔ الجيش الرومانى تماما مع فرار حوالى ١٠٫٠٠٠ مقاتل عبر منطقة الوسط .

وقرر الرومان فى عام ٢١٧ ق . م عدم مواجهة فرسان قرطاجة المتفوقة فى السهل على أن يلتفوا بهم من أقصى الجنوب عند جبال الأبنين . ومع ذلك فى شهر أبريل من نفس العام استطاع هانيبال من حصر جيش فلامينيوس بين التلال والشاطىء الشمالى لبحيرة تراسيمين ، لأهمال الرومان إجراء الأستطلاع والمخابرات مما أدى أن هانيبال قام بهجوم مفاجىء من سفوح التلال ، وفى خلال ثلاث ساعات تمكن من تدمير أو أسر كل قوات العدو . وبعد هذا الأنتصار أعلن هانيبال تحرير إيطاليا من السيطرة والسيادة المطلقة لروما . ثم هبط إلى ساحل الأدرياتيكى حيث استولى فى ربيع عام ٢١٦ ق . م على قاعدة الإمداد الرومانية فى كانا .

معركة كانا (أنظر اللوحة رقم ٨) .

وفى أغسطس استعد الرومان للقتال عند كانا ، فقام هانيبال بتنظيم جيشه على شكل هلال محدب ، بحيث وضع المشاة الأسبانية والغالية فى منطقة الوسط ، أما القوات الأفريقية على كلا الجانبين والفرسان على الأجنحة ، أما مشاة الرومان فتشكلوا بالطريقة التقليدية على شكل صفوف متوازية ، وابتدأ هانيبال الهجوم وهزم فرسان الرومان هزيمة نكراء ، وترك مشاتهم تتقدم متوغلة داخل صحن الهلال القرطاجى حتى أخذ شكل مقعر ، وفى هذه اللحظة دفع هانيبال المشاة الأفريقية من اليسار واليمين لتطويق أجنحة الرومان ، وأكتملت المعركة عندما عادت فرسانه بعد مطاردة فرسان العدو وهاجموا مؤخرة مشاة العدو . وقد قال فوللر عن هذه المعركة : « تم الهجوم من أربع جوانب فأبيد الجيش الرومانى وكأن زلزالا قد أبتلعه » .

وفى معركة كانا هذه أبيد الجيش الرومانى الضخم المشكل من ٧٠٫٠٠٠ مقاتل وذلك

لقيادة هانيبال الحكيمة وحماقة القائد الرومانى القنصل هوكيوس تارينتيوس ڤارو رجل الأعمال الذى كان فى منصب القائد .

وهذه المعركة تعد بمثابة أعظم وأفدح كارثة للجيش الرومانى .

تارينتيوس ڤارو

مشاة الأسبان والغال

المشاة الأفريقية

المشاة الأفريقية

هانيبال

فرسان الرومان

مشاة الرومان

فرسان هانيبال

مشاة هانيبال

اللوحة رقم ٨ - معركة كانا

الحرب حتى الموت (أنظر اللوحة رقم ٧)

أستسلمت معظم دويلات جنوب ايطاليا لهانيبال ، بما فى ذلك مدينة كابوا[١] الهامة ، ولكن النواة الكبرى[٢] للأرض الرومانية ظلت ثابتة وظل الأسطول الرومانى يحكم البحار . وألح ماهربال على هانيبال بالزحف نحو روما فى الحال ، ولكن هانيبال رفض ، لأن استراتيجيته كما قلنا لم تكن مواصلة الحرب حتى الموت ، ولكن ببساطة اخضاع روما للشروطه وعلى أى حال فكان هانيبال يفتقر إلى المواد التى تمكنه من القيام بعمليات حصار كبيرة .

بعد ذلك نشبت حرب الاستنزاف ، حيث استغل الرومان قلاعهم وأعدادهم الكبيرة التى يقودها كوينتوس فابيوس مكسيموس وكان يطلق عليه « البطىء الحذر » واستطاع إرهاق وأضعاف قوات هانيبال ، وإبقائه فى جنوب ايطاليا ولكنه لم يجرأ على مهاجمته . وفى عام ٢٠٨ ق . م . حققت روما نصراً بحريا فأعاد لها سيادتها البحرية وسهل إمكانية غزو أفريقيا فى المستقبل.

وبعد معركة كانا بعشرة سنوات ابتسم الحظ لروما وحققوا نجاحا باهراً فى أسبانيا . ففى عام ٢١٨ ق . م أرسل جيشاً رومانياً إلى أسبانيا وفى أول الأمر أبلى بلاءاً حسناً ، ولكن فى عام ٢١١ ق . م تخلى الحلفاء الأسبان عن الرومان ، فلحق بهم هزيمة نكراء فعادت فلولهم إلى شمال نهر الأبرة . وفى عام ٢١٠ ق . م أسندت قيادة الجيش الأسبانى إلى بوبليوس كورنيليوس سيبيو البالغ من العمر خمسة وعشرون سنة وعرف فيما بعد باسم أفريكانوس .



سيبيو

وقد وضح أن سيبيو سيصبح أعظم القادة الرومان ، وذلك أثناء حضوره كارثتى تيسينوس وكانا وأظهر فيهما شجاعة باهرة جعلته قائدا معروفا ومحبوباً من الشعب . فقد درس الحرب بعناية وعقل متفتح . ففى عام ٢١٠ ق.م

(١) هى مدينة كاسرتا حاليا

(٢) يقصد روما

نزل إلى أسبانيا عند أمبوريوم ومعه ١٠٠٠٠ مقاتل بغرض جمع شتات الجيش الرومانى المبعثر هناك وإعادة تشكيل قوة تعادل أربعة فرق ، وعلى الفور شرع سيبيو فى تنظيم جيشه ورفع معنويات رجاله ثم اتخذ خطوة جريئة بإشعال الحرب القرطاجية الثانية ، وبدلا من مهاجمة جيوش العدو الثلاثة فى أسبانيا ، اتجه فورا إلى قرطاجة الجديدة التى تمثل القاعدة الرئيسية للعدو وتبعد ٣٠٠ ميلا إلى الجنوب على الساحل وتحتاج إلى مسيرة عشرة أيام لكى تصل قوات العدو لنجدتها ، لذلك قرر قطع هذه المسافة بجيشه وأسطوله فى حوالى أسبوع وبذلك وجد أن لديه الوقت الكافى قبل وصول العدو . كانت القلعة هناك مقامة على نتوء صخرى ، ومدافع عنها بقوة ، ولكن سيبيو أخذهم على غرة وقام هو ورجاله بخوض المياه الضحلة حول القلعة وتسلق أسوارها فى أضعف نقطها بالسلالم ، ولم يستغرق الأمر طويلا وسقطت قرطاجة الجديدة واستولى بذلك على قاعدة الجيش وأحتلت قواته الجناح الشرقى ومؤخرة العدو .

وفى عام ٢٠٨ ق . م تصدى سيبيو لجيش هازدروبال عند بايكولا فى الأندلس وهزمه ، وقام القرطاجيون ببناء قوتهم مرة أخرى ، وفى عام ٢٠٦ ق . م تقابل سيبيو مع الجيوش المتحدة المشكلة من جيش ماجو وهازدروبال جيسجو عند إليبا وبالرغم من التفوق العددى لهذه الجيوش إلا أن سيبيو حقق نصرا حاسماً عليهم .

فقد دفع الرومان الفرق القوية الموجودة على الأجنحة إلى الأمام مدمرة أجنحة الجيش القرطاجى قبل أن يتقابل الخصمان فى منطقة الوسط ثم اتجهت بعد ذلك هذه الأجنحة الرومانيـة إلى الداخل لحسم المعركة ، فانسحب الأعداء وأخذ سيبيو يطاردهم حتى البحر حيث استسلموا .

وفى عام ٢٠٥ ق . م تم لسيبيو تطهير أسبانيا من جميع القرطاجيين وبعدها عاد إلى إلى روما .

هانيبال يقابل سيبيو

أدى هذا أن فقدت قرطاجة سيطرتها على أسبانيا وتحقق السلام مع كل من صقلية وسردنيا ومقدونيا ، بينما ظل هانيبال وجيشه فى جنوب إيطاليا .

وفى روما اتجهت النية فى مجلس الشيوخ إلى خنق جيش هانيبال حيث هو ، ولكن سيبيو اقترح خطة استراتيجية مختلفة ، وذلك بابقاء هانيبال كما هو فى جنوب إيطاليا بينما يهاجم قرطاجة فى شمال أفريقيا ، وأظهر المجلس تشككه فى اقتراح سيبيو ، ولكن فى النهاية سمح له بالذهاب إلى صقلية ومعه فرقتين وهناك بدأ سيبيو فى تجنيد وتنظيم وتدريب جيشه وقام بالتحالف مع ماسينيسا ملك نوميديا الذى مده بفرسان من الدرجة الأولى .

وفى ربيع عام ٢٠٤ ق . م وصل سيبيو إلى أفريقيا ومعه ٢٥٫٠٠٠ مقاتل بالإضافة إلى ما مده به ماسينيسا . وهناك واجه جيشا قرطاجى مكون من ٢٠٫٠٠٠ من المشاة و٦٠٠٠ من الفرسان بالإضافة إلى ١٤٠ فيلا تحت قيادة هازدروبال وسوفا كس ملك ماسيسيللى . وبعد حصار ناجح لمدينة أتيكا اتجه شتاءاً نحو كاسترا كورنيليا وهناك حاصره سوفا كس وأصبح فى موقف حرج إلا أنه أستخدم الخداع وتظاهر بطلب الهدنة ، لخدع أعدائه وعلى الفور أمر رجاله بإحراق معسكر الأعداء . وكان من الضرورى على سيبيو أن يهاجم جيش هازدروبال قبل وصول هانيبال إلى أفريقيا ، لذلك فى ربيع عام ٢٠٣ ق . م تقدم سيبيو ومعه فرقة واحده وبعض الفرسان حيث التقى بجيش العدو عند سهل باجراداس وهزمهم بأسلوب تكتيكى جديد غير التكتيكات الرومانية المعتادة وذلك بالقيام بهجومين بالفرسان فى وقت واحد على أجنحة العدو كما أسر سوفا كس .

وبدأت قرطاجة تطلب السلام واستدعت هانيبال بعد أسر سوفا كس . وفى عام ٢٠٢ ق . م عاد هانيبال إلى أفريقيا ومعه جيش مكون من ١٥٫٠٠٠ مقاتلا فما كان من القرطاجيون ان قرروا استئناف الحرب . وفى السنة التالية خرب سيبيو وادى باجراداس الخصب، وفى الخريف التقى سيبيو مع جيشه هانيبال عند زاما[1] ودارت آخر معارك الحرب القرطاجية الثانية فى عام ٢٠٢ ق . م .

كان قوام كل من الجيشين حوالى ٤٠٫٠٠٠ مقاتل ، وربما كان هانيبال متفوقاً بعض الشىء من الناحية العددية إلا أن معظم مشاة سيبيو كانوا مدربين تدريباً جيدا ووصل عدد فرسانه إلى ٤٠٠٠ فارس وكان لدى هانيبال حوالى ٢٠٠٠ فارس . ولأول مرة فى تاريخ قيادة

(١) زاما تقع على مسيرة خمسة أيام إلى الجنوبى الغربى من قرطاجة « المعرب »

هانيبال أن يصبح جيشه ناقص العدد بتلك الدرجة وخاصة فى الفرسان ، وكان هذا يعنى أنه لن يستطيع أستخدام أسلوب التطويق الذى برع فيه وكما حدث فى كانا.

وربما حدث نتيجة لذلك ما لم يكن فى الحسبان ، فطبقاً لما قاله ليفى : — « اقترح هانيبال على سيبيو التقابل معاً بين جيشيهما لمناقشة الأمور سويا » . وأننى أعتقد أنه من الصعب حدوث ذلك فى القرن العشرين ، فلو اقترح على روميل مقابلتى بين خطوطنا قبل معركة العلمين لرفضت بالرغم من أننى كنت سأستمتع جـــداً بمقابلة خصمى القائد الشهير والذى لم أقابله قط .

وعلى العموم فقد تقابل هانيبال مع سيبيو فى وجود المترجمين ومن المحتمل جداً أن هانيبال عرض شروط للسلام ولكن سيبيو رفضها وعاد كل منهما بعد تلك المقابلة إلى معسكره .

معركة زاما (أنظر اللوحة رقم ٩)

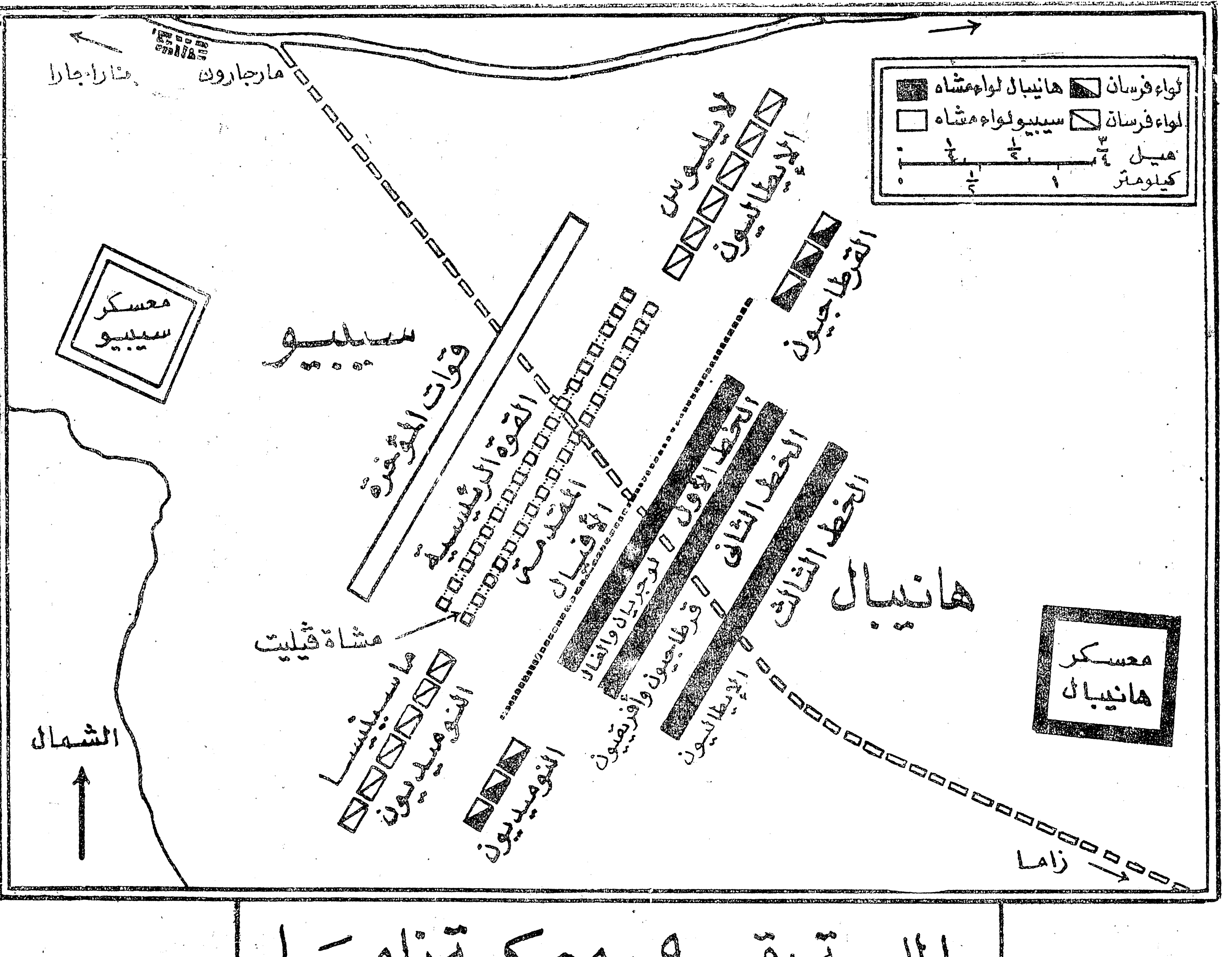
وفى فجر اليوم التالى استعد الجيشان للقتال ، فقام هانيبال بتوزيع قواته وكانت تدل على أنه يدرك ضعف جيشه عن جيش العدو لذلك وضع ٨٠ فيلا فى مقدمة القوات ، واصطفت مشاته فى ثلاث خطوط وكان الخط الأول مكوناً من المشاة الثقيلة من الليجور والغال وانتشرت المشاة الخفيفة بين الفواصل ، أما الخط الثانى فضمنه القوات التى لا يثق فيها كثيراً وهم المجندون الجدد من قرطاجة وأفريقيا ، أما الخط الثالث فكان مكون من المشاة المحنكة من الإيطاليين وكان يبعد عن الخط الثانى ٢٠٠ ياردة حتى لا يعزل أو يحاصر بواسطة العدو أثناء قيامه بالضربة الحاسمة . ووضع هانيبال ١٠٠٠ فارس قرطاجى فى الجناح الأيمن و ١٠٠٠ فارس نوميدى فى الجناح الأيسر ، وكان هدفه من ذلك اختراق الجبهة الأمامية للرومانيين وقد اعتمد فى هذا على الفيلة .

أما سيبيو فلم يوزع مشاته الثقيلة على شكل مربع بل أستغل تفوقه العددى وشكلها فى طوابير بينها ثغرات لكى تمر منها الفيلة فيتعامل معها الفيليت ، وجعل المسافات بين الصفوف أوسع من ذى قبل ووضع المؤخرة بعيداً فى الخلف لإيجاد المسافة المناسبة إذا اضطرت المشاة الثقيلة للانسحاب ، أما قوته الضاربة فكانت مشكلة من الفرسان النوميديين التابعة للملك

ماسينيسا وحشدها على الجناح الأيمن، أما الجناح الأيسر فحشد فيه الفرسان الإيطاليين تحت قيادة لايليوس .

وبدأت المعركة ببعض المناوشات التى قامت بها الفرسان النوميديين لـكلا الجانبين بالمواجهة ، وعندئذ بدأ هانيبال هجومه بالفيلة ، وأثناء تقدمها نحو الجيش الرومانى أمر سيبيو بأطلاق الأبواق والنفائر على طول خطوطه ، وأحدثت هذه الصفارات المفاجئة ذعراً بين الفيلة الموجودة على اليسار فاستدارت عائدة واندفعت فزعة نحو فرسان هانيبال محدثه أرباكاً كبيراً فاستغل ماسينيسا الظروف وقام بهجوم أبعد به هذه الفرسان عن ميدان المعركة ، أما فى منطقة الوسط فقد دفعت سرايا سيبيو الثمن فقد صبت الفيلة جام غضبها على الفيليت ولـكنها لم تلمس المشاة الثقيلة ومرت خلالهم ثم قام فرسان الرومان بمطاردة الفيلة بالرماح نحو يمين القوات القرطاجية وعلى الفور استغل لا يليوس ما حدث من ارباك فى صفوف فرسان العدو ، كما حدث تماماً مع ماسينيسا فى الجناح الآخر ، وأندفع بفرسانه نحو الجناح الأيمن لفرسان هانيبال وبذلك هزمت فرسان هانيبال على كلا الجناحين هزيمة منـكرة وأصبح كلا الجناحين مكشوفين ، وأثبتت الأحداث بأن الفيلة من الممكن أن تـكون مصدراً للـكوارث .

وعلى الفور بدأت فرسان الرومان بمطارة فرسان هانيبال إلى مسافة بعيدة وبعد ذلك بدأت المرحلة الثانية للمعركة وهى الاشتباك مع المشاة ، وفى البداية كانت الأمور تسير لصالح مشاة الليجور والغال فى جيش هانيبال وذلك لخفة حركتهم ، ولـكنهم لم يستطيعوا اقتحام واختراق الخط الرومانى القوى فما كان من الرومانيين أن دفعوا المقدمة وأبتدأت تشتبك مع الخط الأول لهانيبال ولم يتمكن الخط الثانى لهانيبال من مؤازره وأمداد جبهته المتقدمة ، وعندما شعرت مشاة الغال بأنهم تركوا فى الميـــدان وحدهم ، على الفور كفوا عن القتال وتراجعوا بعيداً هاربين تاركين خطهم الثانى ليواجه الرومان . وأصبحت أرض المعركة مليئة بالجثث وملطخة بالدماء لدرجة أنها أصبحت زلقة يصعب فيها القتال . ومرت لحظة من المعركة تراجعت فيها مقدمة الرومان تحت ضغط الخط الثانى لهانيبال ولـكن ضباط الرومان تمـكنوا من تجميع القوات الرئيسية وأنشاء خط أطول من خط هانيبال ، وبذلك تمـكنوا من صد الخط الثانى لهانيبال ودفعه إلى الخلف وتمزيقه إلى مجموعات صغيرة ، وهرب من أستطاع



اللوحة رقم ٩ - معركة زاما

النجاة إلى الخط الثالث طالباً الحماية ولـكن هانيبال رفض انضمام هؤلاء المهزومين إلى صفوف قواته المنظمة والتي لازالت فى كامل نشاطها وقوتها ولم تشترك بعد فى المعركة وأشهرت قوات المؤخرة حرابها مما جعـــل هؤلاء المهزومين يهربون إلى المناطق الجانبيـة لأرض المعركة واختفوا .

والآن أبتدأت المرحلة الثالثة من المعركة وكانت أعنف أطوارها فقد إستعدت جنود الخط الثالث لهانيبال للقتال فى نفس الوقت كان الرومان سعداء لقضائهم على خطين من خطوط العدو ، ولـكن فى نفس الوقت كانت قوات الرومان فى أقصى حالات الاجهاد وكان يتحتم عليهم أن يواجهوا مشاة هانيبال الموجودين فى الخط الثالث وهم فى أكمل قوة ونشاط . ولـكن سيبيو قام برباطة جأش غير عادية بالتفتيش على قواته ذات المستوى العالى من التنظيم حيث أمر بإرسال الجرحى إلى المؤخرة مع ارسال قوات المقدمة المجهدة إلى الأجنحة وقام بتكوين جبهة ممتدة قوية بعد أدماج القوة الرئيسية مع قوة المؤخرة حتى يستطيع توجيه ضربة قوية للعدو واختراق خطوطه وقد قال عنه بوليبيوس : ـ «لقد هاجم الخطين كل على الآخر بأقصى ضراوة وأكبر كمية نيران[1] وكان الجانبين تقريباً متساويين من حيث العدد والروح المعنوية والشجاعة والأسلحة واستمرت المعركة وقتاً طويلا دون أن تحسم لأحد الطرفين ، فكان الرجال يقاتلون ببسالة فى كلا الطرفين ويسقطوا قتلى دون أن يسمح أحد منهما بمرور الآخر عبره ولو خطوة واحدة » .

وأخيراً عادت فرسان ماسينيسا ولايليوس الرومانية بعد أن انتهت من مطاردة فرسان هانيبال ، وقامت بضرب مؤخرة مشاة هانيبال فتبعثروا وقتلوا فى أماكنهم وتمكن القليل جداً منهم الفرار بجلده وانتهت المعركة . انتهت بنصر سيبيو ويرجع الفضل أولا وأخيراً للفرسان الذين أكدوا النصر بالمرور خلال المدينـة كلها بتطهيرها من فلول الأعداء ، أما هانيبال نفسه فقد هرب .

أما سيبيو فلم يحاول الزحف نحو قرطاجة لافتقاره لوسائل وإمكانيات الحصار ، بالإضافة إلى رغبته فى فرض شروط معتدلة للسلام أكثر من رغبته فى فرض شروط إنتقامية .

---

(١) كمية نيران يقصدبها أقصى أستخدام للاسلحة . «المعرب»

التعليق على هانيبال وسيبيو

والآن سوف نناقش ونقارن بين مزايا كل من القائدين هانيبال وسيبيو وقد علق ليدل هارت على معركة زاما بقوله :ـــ «فى تلك المعركة تقابل سيد الحرب مع أعظم منه» وحقيقة هذه العبارة أن سيبيو فاز على هانيبال فى المعركة الوحيدة التى تقابلا فيها ، ولذلك فليس من السهل تقييم المزايا القيادية لهذين القائدين ، ولـكن من الواضح أن هانيبال كان أفضل كقائد تـكتيكى لأن عبقريته التـكتيكية فى معركة كانا لا يمكن مقارنتها بقيادة أى معركة عبر التاريخ الحربى كله . والجدير بالذكر أن جيش هانيبال فى معركة زاما كان أقل فى نوعيته من جيش سيبيو نتيجة لوجود عدد كبير من مشاته غير مدربة بالإضافة إلى أن فرسانه كانت نصف فرسان سيبيو مما أدى أنه لم يستطع استخدام تـكتيكات الالتفاف التى حقق بها انتصاراته السابقة ولذلك كان عليه استخدام الفيلة واعتمد كل شىء فى سير المعركة على سلوك هذه الفيلة ، وقد أحدثوا له كارثة فادحة ، ونرى بعد ذلك أنه فى نهاية المعركة أبقى على أحسن قواته من المشـاة فنجح فى التصدى للمشاة الرومانية وكاد أن يفوز بالمعركة .

أما سيبيو فلم يبدو منه أى خطأ أثناء معركة زاما ويكفيه أنه قام باعادة تنظيم قواته أثناء سير المعركة ، فـكان ذلك يؤكد سيادته على مجرى القتال . ومهما كانت مقدرة سيبيو وسيادته فقد ساعدته العناية الإلهية التى أعادت فرسانه فى اللحظة الحرجة لمعاونة مشاته وقاما الإثنين بالحصول على النصر الذى يستحقانه بجداره .

أما هانيبال فقام بـكل ما كان فى وسعه ، ولـكنه فى عام ٢٠٢ ق . م بعد ١٦ عاماً من قيادة مستمرة عظيمة ، ألقى بنفسه فى هوة النسيان فى نفس الوقت وصل سيبيو وبدون منازع إلى القمة .

وقد كان سيبيو بالتأكيد أعظم التـكتيكيين الرومان ، وأدرك أن الافتقار إلى الفرسان هى نقطة ضعف الجيش الرومانى ، بينما كانت فرق المشاة الرومانية متفوقة على أى مشاة أخرى شهدها العالم ، ولـكن بدون فرسان أصبحت هذه الجيوش عاجزة إلى أبعد حد ولهذا السبب لم يكن الرومان يمثلون خصما قوياً للجيوش المقدونية فى القرن الرابع ق . م . وقد قام

سيبيو بإصلاح ذلك النقص محققاً النصر فى كل من باجراداس وزاما ، ولكن يجدر هنا أن نقول أن سيبيو بادرا كه الحاجة إلى الفرسان مع استخدام أسلوب جديد لها ما هو إلا اعتراف بسيادة هانيبال فى هذا المجال ، لأن استخدام سيبيو للفرسان كان مماثلا للأسلوب الكلاسيكى الذى وضعه الإسكندر وهانيبال، وتشكيل الهلال الذى طبقه فى «اليبا» كان يشبه لدرجة كبيرة لتشكيل هانيبال فى كانا .

ولسوء حظ سيبيو أنه اعتمد بالنسبة للفرسان على حلفائه والمرتزقة بدلاً من اعتماده على الرومان المدربين . وفى حروب القرن الثانى ق . م (بعد سيبيو) وجد الرومان أنفسهم يواجهون بأعداء من المشاة فقط فنسوا تماماً دروس سيبيو التكتيكية . ولقد كان واضحاً أن كل من هانيبال وسيبيو أمتازا بقدرتهما على التعامل مع الجنود ، فقد قام هانيبال بغزو إيطاليا بجيش مشكل من عناصر مختلفة من كل أجزاء غرب البحر المتوسط . وقام بتدريب هذا الجيش وقاده نحو أعظم الانتصارات . كما قال بوليبيوس : — « استمر هانيبال فى إيطاليا يحارب روما لمدة ١٦ عاماً متواصلة دون أن يسرح جيشه ولو مرة واحدة بل احتفظ بأعداده الكبيرة تحت سيطرته بدون أن تظهر اى علامة استياء أو تزمر بين هذه القوات » .

ولقد كان بارعاً فى علم النفس ، ليس فقط لحفاظه على معنويات جنوده مرتفعة بل أيضاً لخداع وإرباك خصومه .

وكان كلا القائدين شجاع ومحبوب من جنوده وأظهر سيبيو تفهمه وإدراكه العميق للعامل الإنسانى فى الحرب فأخذ يجوب بين صفوف رجاله يثير فيهم الحماس ، وفى نفس الوقت أمر هانيبال ضباطه بالمرور على الجنود وتشجيعهم . وعلى أى حال ربما يرجع عدم قيام هانيبال بمثل عمل سيبيو إلى مشكلة اختلاف اللغة فى جيشه المتعدد الجنسيات .

وإذا كان هناك تفوق إمتاز به سيبيو على هانيبال هو بلاشك الاستراتيجية التى حسمت الأمر فى النهاية ، وقد أظهرت سيبيو على أنه واحد من القادة العظام فى التاريخ ، بينما كانت إستراتيجية هانيبال فى إيطاليا بمثابة الفشل الكامل ، لأن انتصاراته الثلاث المتوالية فى الفترة من ٢١٨ — ٢١٦ ق . م لم تحقق ما كان يأمله من حدوث شقاق وتصدع فى الشعب الرومانى ، وقد كان ماهربال على حق عندما قال لهانيبال بعد معركة كانا أنه لم يحسن استغلال النصر

ومن العجيب أن هانيبال لم يحاول قط التدريب على أعمال الحصار فلم يفكر فى احتلال روما ولكن كان يجب أجراؤها على الأقل ليخضع القلاع التى تعتمد عليها الاستراتيجية الرومانية الفابية[1] . وبعد معركة كانا فقد هانيبال المبادأة فأعطى الفرصة لفابيوس ليحول دفة الحرب ضده ، ووجد نفسه فجأة محاصراً فى جنوب إيطاليا ومن الواضح أنه لم يفهم أهمية القوة البحرية وعلى النقيض منه فقد أظهر سيبيو عظمته الحربية وبعد نظره فى الاستراتيجية ، بضرب قواعد العدو مباشرة عندما يكون ذلك ممكنا ، وفى كل مرة يقوم بذلك يحصل على نتائج باهرة . فكان استيلاءه السريع على قرطاجة الجديدة هى نقطة التحول للحرب فى أسبانيا .

نخطته فى إبقاء هانيبال فى جنوب إيطاليا مع توجيه ضربه إلى إفريقيا لتدمير عقر دار العدو لإجباره على وقف نشاطه فى إيطاليا كان ذلك عبارة عن استراتيجية رائعة لقائد عبقرى ، وقد كان سيبيو على قدر كبير من الذكاء عندما استدرج هانيبال إلى المعركة النهائية فى زاما وذلك بالسير خلال وادى باجراداس الخصب وتدميره ، فهدد بذلك أهم موارد قرطاجة وفى نفس الوقت سحب هانيبال بعيداً عن قرطاجة نفسها بينما قصر المسافة التى سيقطعها ماسينيسا بفرسانه لينضم لفرسان الرومان فيتحقق التفوق فى الفرسان التى سيكون لها دوراً حاسماً .

ويرجع النصر المطلق الذى فاز به الرومان على قرطاجة فى الحرب القرطاجية الثانية إلى صمود شعبها فى أعقاب كارثة كانا عام ٢١٦ ق . م وإلى تفوقها فى البحر وإلى استراتيجية سيبيو .

حرب العبيد الأولى

لقد كان كلا الجانبين فى زاما يعلم تماماً بأهمية هذه المعركة وكما كتب ليفى : — « قبل حلول الظلام سيعرف من سيضع القوانين للدول . . . روما أو قرطاجة ، ولن تكون هذه القوانين لأفريقيا أو لإيطاليا . . . بل سيكون العالم كله غنيمة للمنتصر » .

فمن المؤكد أن تلك المعركة حددت مصير غرب البحر الأبيض المتوسط ، مع وضع

(١) الاستراتيجية الفابية هى الاستراتيجية التى تعتمد على الحذر وتجنب الأشتباك بقدر الامكان .
« المعرب »

شروط للسلام تضمنت نزع سلاح قرطاجة مع دفعها تعويضاً، وأصبحت نوميديا محمية رومانية وقسمت أسبانيا إلى مقاطعتين رومانيتين ويقيم فيهما جيش رومانى بصفة دائمة ، كما خضع السكان هناك للضرائب والخدمة العسكرية الرومانية ، وهكذا انبثقت الإمبراطورية الرومانية بعد الحرب القرطاجية الثانية .

وخلال القرن الثانى ق . م خاضت روما حرباًمتواصلة لمدنفوذها فى منطقة البحر الأبيض المتوسط والمحافظة عليها . وفى عام ١٤٦ ق . م دمرت قرطاجة تدميراً نهائياً ، وقامت فى مقدونيا ثلاثة حروب . وفى معارك سينو سيفالا عام ١٩٧ ق . م وبيدنا عام ١٦٨ ق . م انتصرت فرق الرومان التى تتمتع بخفـــة الحركة على فرق الاغريق القوية ، ولـكن ظهر فى بعض هذه الحملات عدم كفاءة القيادة وسوء تنظيم الفرق وأكثر من ذلك تفشى الفساد فى الشخصية الإمبريالية الرومانية وعلى سبيل المثال ، فقد ذبح أواستعبد الـكثير من ضحايا معركة بيدنا . وفى عام ١٦٧ ق . م ألغيت جميع الضرائب المباشرة فى إيطاليا ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت روما تعيش على الجـزيات الإمبريالية وتجارة الرقيق ، ويحتم مثل هـذا الإقتصاد إخضاع وإستعباد مناطق إضافية أخرى.وأصبحت أفريقيا ومقدونيا واليونان وآسيا الصغرى مقاطعات رومانية . وأصبح الرومان مكروهين بسبب حـكمهم الإبتزازى وقامت ثورة فى أسبانيا فىعام ١٥٤ ق . م ضد الحـكم الرومانى القاسى ، وبعد قتال ٤ سنوات استسلم بعض الثوار للقائد الرومانى «جالبا» الذى أمر بذبحهم ،ومع ذلك استمر الأسبان فى القتال بحرب العصابات بقيادة فيرباتوس ، ولـكن فى عام ١٣٣ ق . م وبعد ثمانى سنوات من الحصار الرومانى لهم سقط معقلهم فى نومانتى ، وكما حـــدث مع قرطاجـة ومع كورنيت ، فقـد أبيـدوا عن آخرهم .

وفى عام ١٣٥ ق . م قامت ثورة العبيد فى صقلية والتى عرفت بحرب « العبيد الأولى» ، والتى استمرت وقتاً طويـلا ومضطرباً من التمرد والحـرب الأهلية وانتهت الحـرب فى نوميديا وقضى عليهـا كل من جايوس ماريوس وسولا فى الفترة بـين ١١٢ — ١٠٦ ق . م .

ماريوس وتعديلات الجيش

وقام ماريوس فى الفترة مابين ١٠٢ — ١٠١ ق.م بصد غزوات القبائل الجرمانية وقام بتعديلات هامة فى الجيش فى الفترة بين ١٠٤ — ١٠١ق.م وبصفة خاصة تنظيم الفرق ونظام التجنيد والتطوع وكان يهدف من ذلك إيجاد تنظيم للجيوش يلائم كل الظروف. وقد مهد قواد كثيرون من قبله لهذه التعديلات مثال لذلك ما قام به أميليوس باولوس فى بيدنا بتجميع السريا فى مجموعات أكبر.

وقام ماريوس برفع مرتب الوحدة التكتيكية الرئيسية بدلا من السرية(بها ١٢٠ جندى)إلى الكتيبة (بها ٦٠٠ جندى) لكى يعطى الفرقة أكبر قدر من التماسك مع احتفاظها بالمرونة وفى نفس الوقت قام بتحديد عدد جنود الفرقة ليكون ٦٠٠٠ مقاتل وبذلك صار هناك ١٠ كتائب فى الفرقة الواحدة ،وكل كتيبة مقسمة إلى ستة مجموعات كل منها بها ١٠٠ رجل وكل مجموعة يقودها قائد يدعى « قائد المائة » وألغيت حربه القذف التى ظلت مجموعات المؤخرة تستعملها لأمد طويل وتم تسليح الثلاث خطوط بنوع متقدم ومتطور من الرماح ، واختفت مجموعات الفيليت وكذا فرسان الفرقة ، ومن الآن فصاعداً أصبح الحلفاء هم مصدر الفرسان والمشاة الخفيفة وأصبحت الفرقة المشاة الثقيلة أكثر تعاوناً وقوة والتى كانت وسيلة يوليوس قيصر فى فتوحاته كما أعطى ماريوس لكل فرقة علماً مميزاً به نسر لتستخدمه فى إعطاء الإشارات وكنقطة للتجمع وأصبحت هذه الأعلام بمثابة شعارات للفرق وفقدها فى المعارك يعتبر عاراً كبيراً. وكانت تشابه الأعلام التى تستخدم فى وقتنا الحاضر فى كثير من الجيوش أو النسور التى أعطاها نابليون لألويته، وأهم ماقام به ماريوس من تغيير فى الجيش هو التوسع فى نظام التجنيد والتطوع . ولما كان ماريوس نفسه من أصل فقير فكان نجاحه السياسى يدين للتأييد الشعبى ، فلم يرض أن يكون جيشه من طبقة الأغنياء فقط ولذا فتح باب التجنيد والتطوع لكل من يرغب فى الإلتحاق بالجيش وأدى هذا التغيير إلى سرعة إحتراف الجندية ، أما على السياسة فكان تأثيرة ثورياً فقد إمتلأت العاصمة الامبريالية بأعداد غفيرة من الجنود الكسالى الذين تطوعوا فى الجيش وجعلوه مصدر رزقهم . وكان ولاؤهم كبيراً لقائدهم الذى أدخلهم الجيش وليس للدولة ، لأن الدولة لم تكن قادرة على دفع أجورهم. ولذلك كان قائدهم يسلحهم ويتبعوه طالما كان ناجحاً ،

ويسمح لهم بسلب الغنائم من الأعداء . وقد أدى هذا إلى ظهور عدد من الساسة العسكريين فى القرن الأول ق . م ومنهم ماريوس وسولا وبومبى ويوليوس قيصر . وكانت هذه البدعة أكثر من أى شىء آخر والسبب الرئيسى فى الصراع ، وقد كتب ساليست : —

« لقد ألقوا كل شىء . . . البشر والكهنة فى بحر من الفوضى والارتباك حتى وصلوا إلى درجة الجنون ، فأسفرت هذه الفوضى الأهلية عن حرب ودمار إيطاليا . »

وقد أدى تطور نظام المرتزقة عندالرومان أنهم هزموا أعداءهم كثيراً فى الخارج، ويعنى أيضاً أن سياسة روما الداخلية أصبحت تعتمد على القوة .

وقد اتسع مجال التطوع فى الجيش عندما منح الحلفاء حق التجنس بجنسية روما .

سولا الدكتاتورى

ومنذ عام ١٠٦ ق . م أصبحت العلاقات على غير ما يرام بين كل من ماريوس وسولا ، واصطدمت أطماعهما السياسية ، وفى عام ٨٨ ق . م قام ميتريديتس الرابع ملك بونتس [1] بغزو إقليم آسيا ، بينما ثار الرعايا الأحرار فى اليونان وقتلوا حاكمهم الرومانى . وعلى الفور انتخب سولا قنصلا ومنح القيادةالشرقية ، فامتلأ ماريوس غيرة عندما وصله هذا النبأ وكان يسحق تمرداً فى كامبانيا ، فما كان منه أن توجه فى ثورة غضبه إلى روما ، منتهكا التقاليد التى تنص على عدم دخول الجيش العاصمة ، وأطلق رجاله فى العاصمة وانتشر الماريانيون فى الشوارع يحاربون وأصبح ماريوس نفسه خارجا عن القانون فانطلق هاربا .

وفى أوائل عام ٨٧ ق . م بدأ سولا التقدم شرقاً ومعه خمسة فرق حيث استولى على أثينا ونهبها ، ثم هزم بعد ذلك أرشيلوس القائد البونتى عند كايرونيا ثم أوركومنيوس أيضاً . وفى تلك المعارك استغل سولاالتشكيلات الجديدة للفرق إلىأقصى حد . وأضاف إلى تكتيك المشاة مرونة وقوة دفع جديدتين . فى ذلك الوقت غدرت عليه روما وقررت عزله ولكنه لم يرض بالتخلى عن قيادته .

وفى عام٨٣ ق . م عادبجيشه إلىجنوب إيطالياوكان ماريوس قدمات ، وفىنوفمبر عام ٨٢ ق . م دخل سولا إلى روما وهزم آخر خصومه فى معركة خارج بوابة كايين ، وقام

(١) بونتس : تقع شرق الأناضول

بقتل جميع الاسرى فى المدرج الرومانى ، ونصب سولا نفسه حاكما ديكتاتورى ، وقام بتأمين حكمه بالتخلص من ٣٥٠٠ من أعدائه بقتلهم وظل يحكم حتى اعتزل عام ٧٩ ق . م .

وأثبتت حكومة سولا بأنها حكومة مفيدة ، ولكن الحقيقة المؤلمة أنها كانت حكومة ديكتاتورية تؤيدها القوة العسكرية .

صلب ستة الاف سجين

كانت القوة الأساسية للفرق الرومانية مشكلة من الجنود المتطوعين الفقراء والكسالى وكانوا على استعداد لبيع أنفسهم لأى قائد حتى لو كان عديم الضمير ومجرد من المبادىء والأخلاقيات .

وقد استطاع جنايوس بومبيوس(١) أن يصبح أحد قادة المرتزقة .

وخلال للسبعينيات انفجرت ثلاث ثورات خطيرة ضد روما ، ففى عام ٧٦ ق . م أرسل بومبى إلى إسبانيا ليخمد التمرد الذى قام به القائد الرومانى السابق كونيتوس سيرتوريوس وكان هذا القائد من تلاميذ ماريوس ، وقام بتدريب جيشه على البراعة فى كل من تكتيك الفرق المشاة وحرب العصابات ، وكان يسيطر على كل أسبانيا واستطاع فى أول الأمر التفوق على بومبى ولكن فى عام ٧٢ ق . م أخمدت هذه الثورة .

وفى عام ٧٢ ق . م قام ماركوس لوسينيوس كراسوس بإخماد ثورة قام بها العبيد تحت قيادة المصارع سبارتكوس وقد حوصر العبيد بواسطة زلزال على أطراف إيطاليا واقتيدوا ليقوموا بأعمال الحفر على طول الطريق (من روما إلى كايوا) حيث صلب ٦٠٠٠ منهم . فى ذلك الوقت كان لوسيوس لوكولاس مشغولا فى إخماد الاضطرابات التى قام بها ميتريدتس واستطاع فى الفترة بين عام ٧٣ — ٦٩ ق . م من تطهير آسيا الصغرى . ولكن عندما بدأ التقدم نحو أرمينيا قام جنوده بالتمرد فاضطر إلى العودة قبل أن يكمل النصف الثانى من مهمته .

وكان لوكولاس قائداً كفأ وشجاعاً كما كان إنسانا يعترف بالقيم الإنسانية أكثر من

---

(١) جنايوس بومبيوس : — وهو أحد ضباط سولا وقد عرف بأسم بومبى « المعرب »

أن يكون قاهراً وغازياً ، كما كان فى نفس الوقت غاية فى الصرامة والنظام حتى يضمن ولاء المرتزقة وجنود روما المحنكين . وبعد عودته اعتزل الحياة العسكرية ليقضى بقية حياته فى هدوء وترف ونعيم .

وكانت أقوى شخصية فى روما خلال الستينيات هو بومبى ، فخلال حروب ميتريدتس أصبحت القرصنة مصدراً للازعاج والخطورة ، فكانوا يعملون فى جميع أنحاء البحر الأبيض فى تعاون قريب ، متخذين كريت وسيليسيا قاعدة لهم . وكانوا يمتلكون حوالى ١٠٠٠ سفينة مطلية بالذهب والفضة والأرجوان .

وكانوا يعاونون كل من سيرتوريوس وميتريدتس ، وأصبحت غاراتهم تتميز بالجرأة فسببت خسائر فادحة ، واستولوا على مدن وجزر منطقة بحر إيجة وقاموا بغارات على سواحل إيطاليا لاختطاف الأغنياء وعلى سبيل المثال اختطفوا ايوليوس قيصر وهو صغير ، وأخطر من ذلك كله هو قطع واردات القمح عن روما لذلك وضع على عاتق بومبى عملية تصفية هؤلاء القراصنة .

القضاء على القراصنة

وقام على الفور بحشد ٢٧٠ سفينة وتكوين عشرون فرقة وقدراً كبيراً من المال (٦٠٠٠ تالنت) وقسم كل من البحر الأبيض والأسود إلى ثلاث عشرة قيادة كل منها تحت أمرة قائد يسمى ليجاتوس . وكان كل ليجاتوس عليه أن يحاصر سفن القراصنة مع إخضاع قلاعهم الموجودة فى منطقته . وكان هؤلاء القادة يعملون متعاونين لمنع سفن القراصنة من مساعدة بعضها البعض . وفى ربيع عام ٦٧ ق . م قام بومبى ومعه أسطول مكون من ستون سفينة وأخذ يجوب البحر المتوسط من الغرب إلى الشرق . وكان يستخدم أسلوباً تكتيكياً مستحدثاً بأن يجبر سفن القراصنة للدخول فى مدى الضرب لسفنه الأخرى المنتشرة فى المنطقة . وفى خلال أربعين يوما تم تطهير المنطقة الواقعة غرب إيطاليا . وقام بزيارة سريعة لروما لتفقد الأمور السياسية ثم استأنف عملياته من بروندزيوم[(١)] . ومع تحرك الرومان شرقاً تحول حصار موانى سيليسيا إلى هجوم شامل بينما كان الغرب فى حالة من الأمان ، وأخذت

(١) بروندزيوم وهى برنديزى

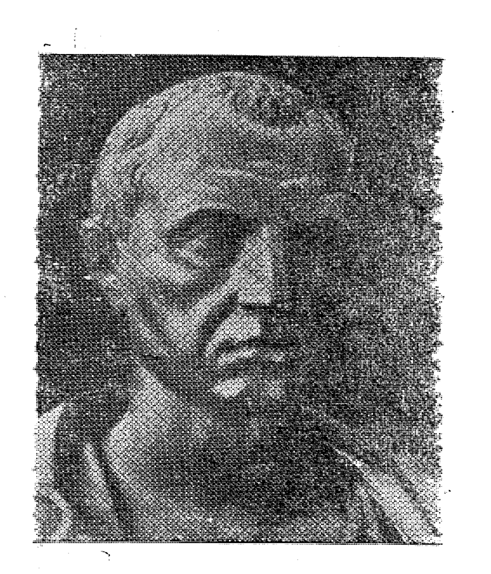
القراصنة فى الاستسلام عندماشاهدوا المعاملة الحسنة للأسرى. أما القراصنةالأقوياءالمتهورين فقد هربوا إلى حصون مختلفة . فأعد بومبى قوة كبيرة معززة بأدوات الحصار وبعد أن هزم آخر القراصنة أمام شواطىء كوراسيزيوم ، قام بحصار معقلهم الموجود على الشاطىء وكان عبارة عن قلعة مقامةعلى صخرة عالية منحدرة بحدة على البحر وتتصل بالشاطىء عن طريق برزخ ضيق، وباستسلام المدافعينفى هذه القلعة استسلمت باقىالقلاع فىسيليسيا، وقد استغرقت عملية التطهير من بدايتها إلى نهايتها حوالى ثلاثة شهور . وقد أظهر بومبى مقدرة رائعة كقائد بحرى ليس لأنه من قادة الحرب البرية بل أيضاً لأن الرومان كانوا قليلى الخبرة فى معارك البحر . ولـكنعندما استدعت الظروف لذلك ، عادوا إلى قتال البحر ولـكن عندما انتهت تلك الظروف عادوا ثانية إلىحياة الأرض واضعين السياسة الخارجية والاستراتيجية فى إطار يمكنهممن تحقيق أغراضهم من هناك . ولم يبنوا أسطولا كبيراً إلا عندما اضطروا للقتال مع القوة البحرية الـكبيرة القرطاجية . واستطاعوا فى خلال ستون يوماً بناء ٢٠ سفينة من النوع ثلاثى المجاديف و ١٠٠ أخرى من السفن السريعة . وكانت الخطة التى اتبعوها هى وضع السفن الرومانية على طول خط سفن الأعداء بحيث يمكن لجنودهم من العبور بعد ذلك إلى سفن الأعداء عن طريق ممرات خشبية توصل بين السفينتين .

وحقق ديليوس نصراً مثيراً بالأسطول الجديد فى صقلية فقد أغرق أو أسر أربعة وأربعون سفينة معادية .

بينما ضاع النصر الثانى أمام رأس إيـكونامس عندما فقد الأسطول على أثر عاصفةهوجاء وفقدت روما خلال تاريخها البحرى سفناً نتيجة للعوامل الطبيعية أكثر مما فقدته نتيجـة للعدو ، وكان انتصار دريبانا البحرى عام ٢٤١ ق . م خاتمة للحرب القرطاجية الأولى . وفى الحرب القرطاجية الثانية ، (٢١٨ — ٢٠١ ق . م) ساهم تفوق روما البحرى فى تحقيق انتصارها الـكامل ، فضاعت الفرصة من هانيبال لإعادة تقوية نفسه فى جنوب إيطاليا فى الوقت كان الرومان يغزون أفريقيا . وقدأهملت روما أسطولها خلال القرن الثـانى ق . م واعتمدت على أسطول حلفائها من رودس وبرجاموم . وعندما أصبحت روما المسيطرة على جميع بلاد البحر المتوسط ، أهملت سيادتها للبحار ونتج عن ذلك إنتشار القراصنة .

أما فى نهاية عام ٥٩ ق . م وصلت أنباء الى روما بقيام هجرة من سويسرا عبر الجنوب الغربى للغال .

يوليوس قيصر يظهر على مسرح السياسة : — (أنظر اللوحة رقم ١٠)



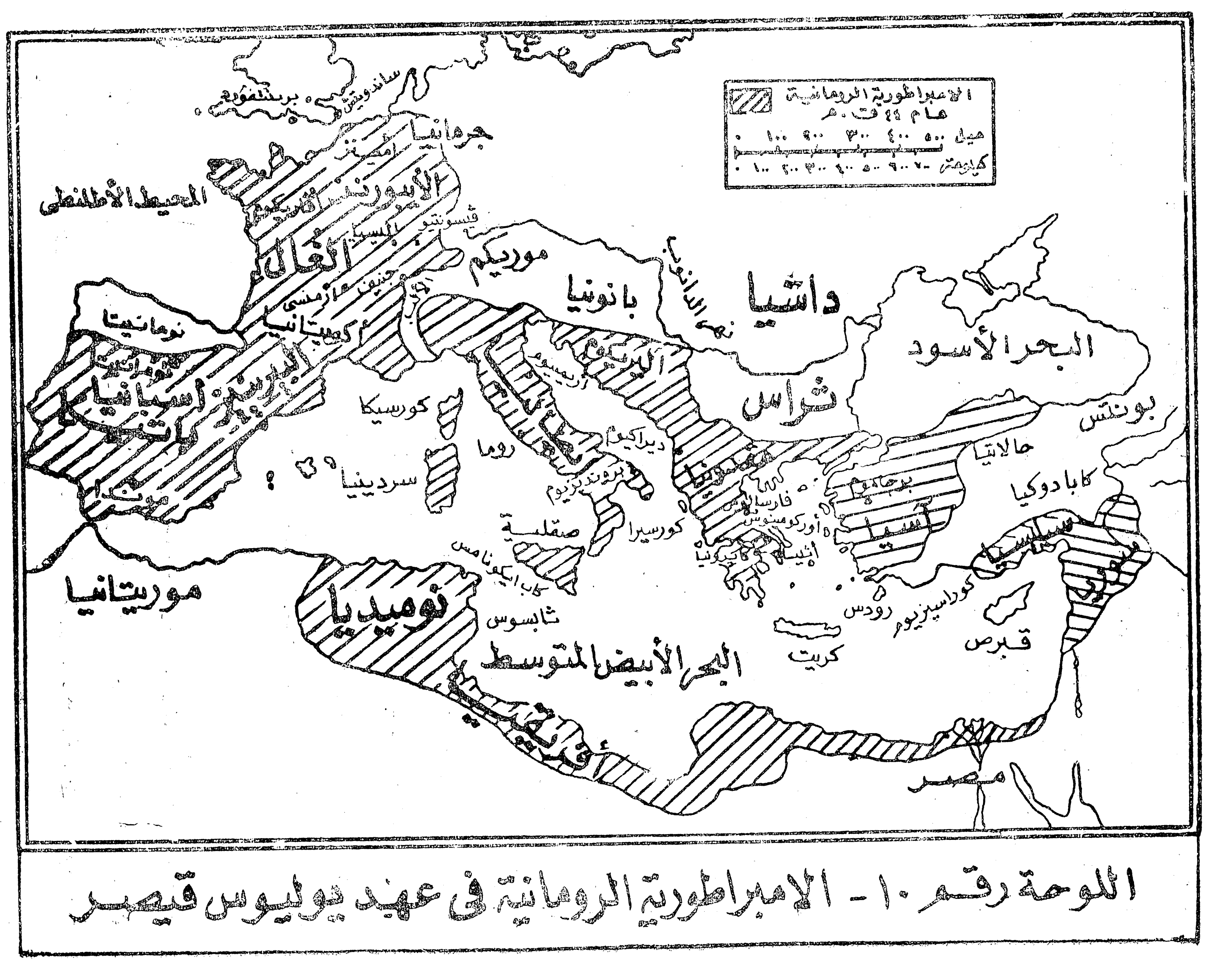
يوليوس قيصر

كلف يوليوس قيصر حاكم أليريكوم والغال بهذه المهمة . وبمجرد أن انتهى من واجباته كقنصل فى هذا العام تحرك بسرعة فائقة إلى جنيف فى ذلك الوقت كان عمره ٤١ عاما و تجربته العسكرية السابقة محدودة ، ففى عام ٨١ ق.م خدم فى آسيا الصغرى ، وفى حرب ميتيلين حصل على وسام الوطنية لإنقاذه لحياة جندى من زملاءه ، ولكنه بعد ذلك ركز اهتمامه على الأعمال السياسية وضمن لنفسه مركز قنصل بعد أن توصل فى عام ٥٩ ق . م لإتفاق مع كل من بومبى و كراسوس لأنه أبن عم لماريوس . وقد شق يوليوس طريقه وأصبح قنصل عن طريق النفوذ السياسى وجمعه بين التهديد العسكرى والقدرة على الخطابة والتعامل مع طبقات الدنيا وعامة الشعب. ومن المحتمل عندما أسرع إلى جنيف عام ٥٨ ق. م. مع تيتس لابينوس لم يكن فى نيته غزو الغال، ولكنه كان طموحاً ويريد إكتساب شهرة ويكون لديه جيشاً قوياً حتى يستطيع البقاء متربعاً على قمة السياسة الرومانية .

وفى بداية صيف عام ٥٨ ق م أقام سلسلة من الحصون فى وادى الرون لمسافة ١٩ ميل ثم هزم السويسريين بعد ذلك عند أرميسى وتحول بعد ذلك إلى الغال فى صورة منقذ وليس فاتحاً ، ثم واصل تقدمه شمال الحدود القديمة لروما لتطهير الألزاس من الغزاة الجرمان الذين استوطنوها حديثاً وا كتسحت ستة فرق ليوليوس فى تشكيل الخطوط الثلاثة سبعة قبائل جرمانية بالقرب من فيسونتيو .

وفى شتاء ٥٨ — ٥٧ ق . م ترك يوليوس فرقة فى تلك المنطقة مما أدى إلى حقد بيلجا[١] لهذا الاختراق للجيوش الرومانية . وفى ربيع ٥٧ ق . م هرع يوليوس قيصر شمالا ليواجه الجيش البيلجى المكون من ٣٠٠٫٠٠٠ مقاتل بقيادة جاليا عند نهر إيسن. وقد اتبع الجيش البيلجى أسلوباً بدائياً بربريا فقاتلوا بجماعات غير منظمة من المشاة ، ومعظمهم غير مسلحين

(١) بيلجا . — أحدى أجزاء التحالف الجرمانى للقبائل التى أستوطنت شمال الغال . « المعرب »



اللوحة رقم ١٠ - الامبراطورية الرومانية فى عهد يوليوس قيصر

إلا بسيف طويل ودرع من الخشب أو الوتل[١] وكانوا يقاتلون وهم نصف عرايا ، فى نفس الوقت قادتهم يلبسون دروع واقعية للصدر من البرونز وعلى رؤوسهم خوذات مزخرفة . وقد كان أسلوبهم الوحشى البربرى فى القتال ينجح دائماً ، ولكن عندما طبقوه مع الرومان كما قال فوللر : « تحطمت الشجاعة على صخرة النظام » واستغل يوليوس الانشقاق بين قبائل البلجية فحارب كل قبيلة على حدى وفى نهاية عام ٥٦ ق . م تم له فتح كل الغال فيما عدا « ماسيف الوسطى »

يوليوس قيصر يغزو بريطانيا

وفى خريف عام ٥٥ ق . م قام يوليوس قيصر بأول رحلة له إلى بريطانيا وفى الواقع كانت رحلة استطلاعية . وفى يوليو عام ٥٤ ق . م أبحر سطول يمكن أن يقال عنه من أضخم ما شهده بحر المانش لما قبل حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ متجهاً نحو ساندويتش ويحمل خمسة فرق و ٢٠٠٠ فارس من الغال وكان البريطانيون منزعجين جداً من مواجهة هذا الحشد الضخم عند نزوله إلى الشاطىء فما كان من يوليوس أن طاردهم داخل البلاد ولكنه سمع خلال أربع وعشرين ساعة بأن سفنه دمرت نتيجة للطقس السىء وهنا تشجع البريطانيون وبدأوا حرب العصابات وكانت عنيفة يقودها كسفيلونس . وعموما فقد هزمهم يوليوس فى معركة بالقرب من برينتفورد واستولى على قلعة كسفيلونس على الجانب الآخر من نهر التيمز . وحان الوقت ليعود إلى الغال لذلك فرض شروطا معتدلة على البريطانيين ثم انسحب ولم يعد الرومان بعد ذلك الى بريطانيا لمدة مائة عام . ولم يحدث مطلقاً أن دفع البريطانيون ما فرض عليهم من الجزية . ويجب النظر لعملية الغزو الذى قام بها يوليوس لبريطانيا بشىء من العمق ويمكن تفسيرها بأنها مجرد تغطية للفشل .

ولم يكن عامل الوقت هو الاعتبار الوحيد لعودة يوليوس إلى الغال ولكن لأعتبارات أخرى أكبر وهى قيام الثورات التى تفجرت فى عدة أماكن هناك . وفى عام ٥٣ ق. ظهر أمبيوريكس قائد للمتمردين وكان يقود الأيبورنز وقد أباد فرقة رومانية كاملة

---

(١) الوتل عبارة عن قضبان مضفرة من الأغصان . « المعرب »

بالقرب من أميئزثم حاصر معسكراً رومانياً مستخدماً الأسلوب الرومانى فى الحصار . وقد قام يوليوس بفك هذا الحصار . فاضطر يوليوس أن يقضى باقى السنة فى سحق الأيبورونز . أما أمبيوريكس فقد دفع به نحو الأردن، كما جلد قائداً آخر للمتمردين حتى الموت . وبنفس النمط تمت تصفية الأيبورونز بتدمير محاصيلهم وماشيتهم كما يقول يوليوس :—

« لقد تم حرق كل ما يمكن أن يراه المرء من قرى صغيرة ومنازل وما حولها » وقد ساعد الانشقاق العميق بين المتمردين أن استطاع يوليوس النيل منهم ، ولكن فى عام ٥٢ ق . م ظهر قائد جديد لهم .. وتمكن بقسوته ونظامه أن يوحد بين ثوار الغال وكان يدعى أنتوى فرسنجتركس قائد الأرفيرنى .

فى بداية العام قام يوليوس بتقدم مفاجىء عبر التلال الثلجية ، مما أدى إلى ارباك العدو حتى أمكن محاصرة القلعة التى يحتلها أفاريكوم (بورج) وهنا قرر فرسنجتركس استخدام أسلوب حرب الانهاك والاستنزاف وتجنب مواجهة فرق يوليوس بقتال سافر ، وذلك باستخدام حرب العصابات . وحاول فك حصار أفاريكوم بأشعال النيران فى المنطقة حول المدينة كلها لحرمان الرومان من الطعام ، ولكن يوليوس أستولى على المدينة وقتل جميع سكانها واستولى على مخازن القمح بها . وأخيراً استطاع يوليوس محاصرة القلعة التى يحتلها فرسنجتركس نفسه فى باليسيا ولكنه هوجم بجيش قوى من الأعداء من الخلف وحاصره هو وقواته ، وبذلك أصبح يوليوس محاصراً بينما هو يحاصر القلعة إلا أنه سيطر على مساحة خمسة وعشرون ميلا من الخنادق والمواقع الدفاعية ، وفى النهاية تمكن من هزيمة الجيشين المعاديين داخل وخارج القلعة وكان هذا الانتصار الرائع بمثابة تحطيم السلسلة الفقرية للثورة الغالية وتم وضع سلام مبنى على الحرية وبذلك لم تعد الغال تمثل أى خطر على روما .

وفى نفس الوقت تغير الوضع السياسى فى إيطاليا تغييراً كاملا .

كارثة روما

وفى ربيع عام ٥٣ ق . م عبر كراسوس[1] نهر الفرات حيث اصطدم بالعدو عند كارا ،

(١) كان جيش كراسوس مكونا من ٢٨٠٠٠ من المشاة و ٤٠٠٠ فارس و ٤٠٠٠ من المشاة الخفيفة « المعرب »

وكان جيش العدو يتكون من ١٠٠٠ مقاتل من الرماة الثقيلة و ١٠٫٠٠٠ من الرماة الراكبين وخلف هؤلاء يوجد ١٠٠٠ جمل محمل بأعداد كبيرة من السهام كاحتياطى للقوات تحت قيادة سورناس . اتخذت القوة الرئيسية لجيش كراسوس تشكيل مربع وصمدوا أمام وابل من السهام الذى ظل ينهمر عليهم حتى هبوط الليل . وخلال الليل بدأ كراسوس فى الانسحاب نحو التلال ، ولكن الدليل الذى كان يقوده ضل الطريق ... وسقط كراسوس فى الفخ ، ثم اغتيل هو وأركانات حربه أثناء اجراء مفاوضات الاستسلام مع سور ناس وفر حوالى ١٠٫٠٠٠ مقاتل من جيش كراسوس الذى يقدر بحوالى ٣٦٫٠٠٠ مقاتل وكانت معركة كارا بمثابة كارثة للرومانيين إذا قورنت بكل من كودين فوركس وكانا .

وفى خريف عام ٥٠ ق . م عندما عاد يوليوس إلى ايطاليا ، لم يكن هناك سواه ... وبومبى يتصارعان على السلطة . وقد ذاع فى روما قسوة يوليوس قيصر فى الغال ، وتخوف الجميع أن يصبح سولا آخر وقد صرح بعض الشيوخ علانية بأنهم سيتهمونه بالخيانة العظمى بسبب عودته ، وفى هذه الظروف لن يكن هناك مفراً من حرب أهلية وخاصة أن يوليوس له جيشاً يدين له بالولاء والإخلاص ويتكون من تسعة فرق أما بومبى فله جيشاً مكوناً من عشرة فرق منها سبعة فى أسبانيا علاوة على سيطرة بومبى على الأسطول . وكان يوليوس يحظى بولاء شعبى أكثر مما يحظى به بومبى .

وفى يناير عام ٤٩ ق. م تأهب يوليوس للحرب وعبر نهر روبيكون[1] زاحفاً نحو الجنوب ، أما بومبى فلم تكن لديه الرغبة فى الدخول فى معركة سافرة مع فاتح الغال وقواته المحترفة المحنكة وذلك لأنه لم يشهد أى عمل حربى منذ عام ٦٢ ق. م علاوة على ضعف قواته من الناحية العددية والتدريب ، ولذلك قام فى نهاية شهر مارس بترحيل جيشه بحراً من بروند يزيوم، فى الوقت الذى كان يزحف فيه يوليوس وجيشه نحوه. وفى خلال عشرة أسابيع من عبور يوليوس لنهر روبيكون تمكن من السيطرة على إيطاليا ودخل روما دون أى قتال .

وفى أبريل عام ٤٩ ق. م رحل يوليوس إلى أسبانيا ، وهناك خلال سبعة شهور أخضع

---

(١) بالقرب من أريمنيوم

الفرق السبعة التابعة لبومبي دون أراقة أى دماء وضمن ولائهم . وبعدها زحف سريعاً وعند نهر سيكوريس بالقرب من إليردا أوقع خصمه فى شرك فى أحدى الممرات الضيقة حيث استسلمت هذه القوات .

يوليوس قيصر وكليوباترا

وفى يناير عام ٤٨ ق . م عبر يوليوس وجيشه إلى مقدونيا ، حيث تسلل خلف سفن دوريات بومبي وأنزل سبعة فرق شمال كورسيرا . وحاصر جيش بومبي فى ديرا كيوم مدة من الوقت حتى بادر جيش بومبي بالقتال فى ٩ أغسطس ودارت أعنف المعارك فى الحرب الأهلية وخاضها الجيشان عند فارسالوس فى بتيسالى . وكان بومبي يرغب قبل وقوع هذه المعركة فى تجنب القتال ولكن ضباطه نفذ صبرهم ، وأدى هذا أن لحقت الهزيمة بجيش بومبي منذ البداية لاخفاق لابينوس فى دفع فرسانه الموجودين فى اليسار إلى المعركة . وفى اليوم التالى استسلمت جميع القوات المتبقية من جيش بومبي بينما فر بومبي إلى مصر . وبعد ذلك كان على يوليوس أن يتخلص من اتباع بومبي الموجودين فى مختلف المقاطعات ، فقام أولا بالسير فى أثره إلى مصر حيث قتله ووقع فى حب الملكة كليوباترا ، وبقى فى مصر تسعة شهور . وفى يوليو عام ٤٧ ق . م تمكن من هزيمة الفارناس المتمردين فى زيلا وأرسل بعدها رسالة إلى روما موجهة إلى أعضاء مجلس الشيوخ يبلغهم بانتصاراته العظيمة . مر حوالى عام على معركة فارسالوس فى ذلك الوقت وحد أتباع بومبي صفوفهم فى أفريقيا تحت قيادة لابينوس . وفى ديسمبر عام ٤٧ ق . م نزل يوليوس قيصر إلى أفريقيا بفرقة واحدة و ٦٠٠ فارس ، وفى البداية إصطدم بمقاومة عنيفة ، ولكن وصله فى الربيع التالى الإمدادات والتعزيزات فساعدته على إنهاء حملة أفريقيا بانتصاره فى ثابسوس .

وفى عام ٤٥ ق . م هزم آخر ما تبقى من أتباع بومبي فى أسبانيا عند موندا[1] وبذلك أصبح يوليوس قيصر سيد العالم كما أصبح دكتاتور روما الدائم .

وبالرغم من أن حكمه لم يكن بغيضاً إلا أنه اغتيل فى نهاية الأسبوع الثانى من مارس عام ٤٤ ق . م على يد كل من الجمهوريان بروتس وكاسيوس .

---

(١) موندا بالقرب من قرطبة « المعرب »

يوليوس قيصر كقائد وسياسي

بالرغم مما حققه يوليوس من نجاح وإنتصار كبير ، إلا أنه كان عرضة للنقد ، فقد فشل في إجراء التغييرات الضرورية لإعادة تنظيم جيشه فكان يفتقر للمشاة الخفيفة مما إستغرق وقتاً أطول في هزيمة الغاليين ، علاوة على أنه لم يقم بتدريب فرسانه للوصول إلى المستوى اللائق ، بل إعتمد على البرابرة في الخيالة . وقد كان الاستطلاع في جيشه رديئاً جداً وأهمل خطوط مواصلاته وأدى هذا الإهمال أن أسطوله كاد أن يفقد مرتين عند الساحل البريطاني ولم يكن لديه هناك أجهزة لإجراء الاصلاحات اللازمة ، علاوة على سوء الإمداد وقطع خطوط المواصلات عند كل من إليردا وديرا كيوم لدرجة أن الكثير من جنوده كانوا يموتون جوعاً .

علاوة على ذلك كان يوليوس قيصر شاذا في تفكيره الاستراتيجي ، فبعد أن قضى على الغال قام بقضاء الصيف في جزيرة نائية ، ليس لها أي أهمية إقتصادية أو سياسية أو استراتيجية ، بينما كانت تندلع خلفه ثورات كثيرة . ولم يظهر يوليوس أي أبداع كرجل تكتيكي وتنظيمي ، فأهمل قوات الفرسان ، وقاتل في جميع حروبه ضد مختلف أعدائه بالفرق المشكلة على ثلاث خطوط وهو التشكيل التقليدي المحض ولكنه بالرغم من ذلك كان أعظم قادة الرومان في قيادة المشاة علاوة على قيامه بتطوير الفرق المشاة بعض الشيء .

وكان نهجه في السياسة كنهجه في القتال ، فعندما وصل إلى قمة السياسة كانت قراراته وأعماله سريعة . وكان جريئاً لأبعد الحدود ومندفعاً بل ومتهوراً ، وعلى العموم ساعدته خفة الحركة والمبادأة في جميع حروبه .

وكانت شخصية يوليوس مميزة ومن أكبر عوامل نجاحه ، فمجرد أن يشعر جنوده بوجوده بينهم كان هذا يعطيهم التأكيد والثقة في النصر . وكانت بشاشته وذكاءه من العوامل التي أدت إلى إخلاص رجاله له حتى النساء لم تستطع مقاومته . وكان في نفس الوقت سياسي ماهر وله شعبية وموهبة خطابية فذة . وكان السبب الرئيسي في أن الشعب الإيطالي تبعه في الحرب الأهلية هي شعبيته وحبه لعامة الشعب . وكان يعتمد دائماً على القوة والبطش ومثال لذلك ماقام به في الغال من بشاعة وقتل وإنتقام وبالرغم من ذلك فعندما

إنتصر فى الحرب الأهلية كان متسامحاً ومتساهلاً مع أعدائه ، ولذلك أصبح من المشكوك فيه أن يكون مختل العقل .

وبعد موته . . . تصارع مختلف السياسيين طمعاً فى إمبراطوريته ، إلى أن تمكن أخيراً إبن أخيه أوكتاڤيان من هزيمة أنطونيو وكليوباترا فى موقعة أكتيوم البحرية عام ٣١ ق. م وبذلك أصبح أول أباطرة روما .

الفصل السادس

الدفاع الرومانى ... والهجرات البربرية

عقدة ماجينو

لقد ظهر أن أوكتافيان[1] كان يفتقر إلى الصفات العسكرية التى يتمتع بها يوليوس قيصر إلا أنه كان يتميز بصفات رئيس الدولة والتى يفتقر إليها يوليوس .

وقبل أن نتكلم عن عهد أوكتافيان سنلقى نظرة سريعة على الأمبراطورية الرومانية فى حوض البحر الأبيض المتوسط بعد أن توسعت أبان عهد القيصر ، فنجد أنها كانت محصنة ومدافع عنها جيداً لتمركز الجنود على طول حدودها فأدى هذا أن إستمرت قوية لأكثر من ٤٠٠ عاما، إلا أن القوات إستمرت فى الدفاع مدة طويلة واستخدمت بطريقة سيئة فأثر ذلك على قدرتها القتالية ، وهذا يحدث دائماً فى جميع الجيوش التى تبقى قوتها مدة طويلة فى أوضاع الدفاع فتموت الروح الهجومية لديها ممهدة بذلك الطريق لما يسمى بعقدة ماجينو[2] ، وعلى مر السنين كثر دخول البرابرة الجيش الرومانى نتيجة لهبوط التعداد السكانى فى إيطاليا مع بغض الإيطاليون أنفسهم للخدمة العسكرية ، فأدى هذا أن أخذت التقاليد العسكرية الرومانية العريقة فى الانحلال تدريجيا ، لأن البرابرة قضوا على الضبط والربط والكفاءة التى تميزت بها الفرق الرومانية فى الماضى، فتغيرت شخصيتها تغييراً جذرياً. فأخذت الأمبراطورية تتآكل ببطء من الداخل وفى نفس الوقت من الخارج نتيجة للهجرات الغازية للشعوب البربرية حتى اضمحلت الأمبراطورية الرومانية فى الغرب سريعاً .

---

(١) أوكتافيان : لقد أطلق عليه اسم أغسطس .

(٢) ماجينو : هو الخط الدفاعى المحصن التى أنشأته فرنسا على حدودها مع ألمانيا وذلك قبل الحرب العالمية الثانية وقد اعتمدت عليه تماماً فى الدفاع عن أراضيها معتقدة أنه لا يمكن اختراق هذه التحصينات القوية ، فأدى هذا أن سيطرت فكرة الدفاع على جميع القوات الفرنسية متغاضين عن فكرة الهجوم ، فنتج عن هذا أن أجتاحت فرنسا فى أيام معدودات . « المعرب »

نعود ثانيا إلى أغسطس الذى تنبه إلى الحالة السيئة للجيش الرومانى والتى أصبحت أبعد ما تكون عن المستوى المطمئن ، فنجد أن الجيش كان مكونا أساسا من الحاشية الخاصة للامبراطور ومعظم جنودها قليلى الخبرة ومدد خدمتهم قصيرة .

رأى أغسطس من الضرورى تحصين حدود إمبراطوريته المترامية الأطراف والسيطرة على المناطق التى فتحت حديثا مع صد غارات وأعمال الغزو من الخارج ، فوجد أن كل هذا يتطلب وجود جيش منظم وجنود أكفاء ولهم مدد خدمة طويلة وفى نفس الوقت يدينون بالولاء للدولة أكثر من ولاءهم للقادة العسكريين .

وفى عام ٣١ ق . م قدر أغسطس الموقف فوجد أن لديه ستون فرقة تحت السلاح ولكن تكاليف هذه القوات كانت أكثر بكثير من إمكانيات الدولة ، فى نفس الوقت تعدادها أكبر مما هو مطلوب لحماية الأمبراطورية الرومانية بالرغم من حدودها الطويلة[١] ، فى نفس الوقت درس الموقف الجغرافى والسياسى للامبراطورية الرومانية فوجد أن الحدود الغربية والجنوبية تتمتعان بحماية طبيعية لوجود الأطلنطى والصحراء الكبرى ، أما الحدود الشرقية فوجد أن من الأفضل إستخدام الوسائل الدبلوماسية لتأمينها بدلا من إستخدام القوة ، أما الحدود الشمالية فتحتم عليه وجود حامية قوية لتأمينها .

وبناءاً على هذه الدراسة قام بتخفيض الفرق إلى ثمانية وعشرون فرقة ، وأصبحت قوة الفرقة حوالى ١٦٨٠٠٠ جندى مع الاحتفاظ بحوالى ١٥٠ر٠٠٠ جندى كاحتياط وأغلبهم من الفرسان والمشاة الخفيفة ، وقد شكلت الفرسان فى كتائب يتروح عددها من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ فارس . كما أعاد أغسطس تكوين الحرس البريتورى[٢] وشكله فى تسع كتائب وقوة الكتيبة ألف جندى إيطالى مختارين جيداً وأقوياء ، وكانوا هؤلاء يمثلون حامية روما وفى نفس الوقت الحرس الخاص للامبراطور . وكان يتقاضى الحرس أجوراً أعلى من باقى الجيش ، ولا يخرج للقتال إلا بصحبة الأمبراطور نفسه وقد شعر البريتوريون سريعا بقوتهم

---

(١) كانت تشمل جميع بلدان ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وقد امتدت ايضا على طول الدانوب والراين و خلال اسكتلندا .

(٢) الحرس البريتورى: وهو الحرس الخاص للامبراطور . « المعرب »

وتأثيرهم على سياسة الدولة حتى أصبحوا يتدخلون فى جميع مصالح الدولة ويسيرونها حسب هواهم ، لدرجة أن نيرون انتحر عام ٨٦ ب . م ليتجنب الإعدام بواسطة رجال الحرس[١] ولذلك لم يكن هذا الحرس محبوبا .

المدرعات فى عهد أغسطس

لو ألقينا نظرة على الأعمال التى كانت تقوم بها البحرية الرومانية لوجدنا أنها تنحصر فى الدوريات وحراسة المياه الصديقة ، إلا أنها كانت قوة لا يستهان بها ، فقد أنشأ أغسطس قاعدتين بحريتين جديدتين فى إيطاليا أحداها فى ميسينوم والأخرى فى راڤينا علاوة على وجود سفن تحت أمرة كل حاكم إقليم غير مجموعات من السفن تجوب الأنهار الموجودة على الحدود. وعلى كل فكانت مهنة البحرية فى ذلك الوقت غير محترمة لأن جميع جنود التجديف كانوا من العبيد بينما كان جنود الجيش يتمتعون بالهبة والإحترام .

أما إذا بحثنا سويا فى المعدات والاستراتيجية والتكتيك فى الجيش الإمبريالى الرومانى لوجدنا أنها لم تتغير لمدة ثلاثة قرون ونصف قرن وذلك منذ عهد سيبيو وماريوس والقيصر. فالجيش الرومانى كان يتحرك للقتال عادة فى طابور طويل حتى عام ٦٧ ب . م ، إلا أن فسبازيان وجوديا غيرا هذا النظام بتقسيم الجيش المتحرك إلى مقدمة وقوة رئيسية ومؤخرة والمقدمة[٢] تتحرك فى تنظيم معين فكانت تدفع فى الأمام مجموعات من مشاة وفرسان الفرق ثم وحدة من المهندسين فأمتعة الضباط الكبار تحت حراسة من الفرسان فالقائد العام وتصحبه نخبة منتقاة من المشاة والفرسان كحرس خاص له . يتبع المقدمة القوة الرئيسية للقوات بقيادة الفرسان فوحدة تحمل معدات وأجهزة الحصار على ظهور البغال ثم قائد الفرقة وأركانات حربه ثم الأعلام وعازفى الأبواق ثم جنود الفرقة نفسها فى تشكيل ستة صفوف ، أما المؤخرة فيسير فيها حرس المؤخرة من القوات المرتزقة وجميع أمتعة الفرقة. وكان التشكيل المتبع للقوات هو ستة صفوف إلا أنه يتغير فى الأرض الوعرة أو عند توقع هجوم العدو ويصبح أربعة

---

(١) لقد كان قائد الحرس سيجانوس من المقربين إلى تيبيريوس .

(٢) المقدمة تتشكل من مشاة خفيفة ورماة سهام من القوات الأجنبية . «المعرب»



الحرس البريتورى (الحرس الخاص للأمبراطور)

صفوف متوازية ليسهل إتخاذ تشكيل المعركة وبسرعة . وقد إستمر تشكيل القتال كما هو[١] حتى القرن الأول ب . م ، وخلال القرن الثانى ب . م عاد الجيش مرة ثانية إلى تكتيك كتائب المشاة الثقيلة ، وأصبحت القوات الأحتياطية المتحالفة فى ذلك الوقت على جانب كبير من الكفاءة وكان عليها القيام بمهمة الاستطلاع الأولى وتقدير الموقف بينما تقوم القوة الرئيسية من المشاة الثقيلة بخوض غمار المعركة وتحمل وطأة القتال الفعلى . وقد أستخدم فى ذلك الوقت تشكيل آخر وهو التشكيل المدرع[٢] ويستخدم فى التقدم والانسحاب لوقاية القوات من القذائف المتساقطة عليهم . وخلال القرن الثالث ب . م ظهر سلاح جديد وهو اللانسا[٣] وحل محل الحربة القديمة التى كان يطلق عليها بيلوم .

النساء يستعددن المعركة (أنظر اللوحة رقم ١١)

وبالرغم من قوة وازدهار الإمبراطورية الرومانية إلا أن حدودها الشمالية لم تحدد معالمها تماماً وذلك لأن أغسطس كان يهدف من ذلك الزحف إلى الأمام نحو نهر الدانوب والألب . وفى الفترة ما بين عام ١٧ — ١١ ق . م قام تيبيريوس[٤] بتأمين خط الدانواب ، وفى نفس الوقت قام درسوس[٥] بإقامة معسكرات محصنة على الراين مع تولى مهمة التقدم نحو الألب ، وبعد مسيرة طويلة وشاقة فى المناطق الجبلية والغابات وصل إلى نهر الألب فى عام ٩ ق . م وهناك مات ، وعليه اسندت قيادة الحملة فى ألمانيا لتيبيريوس إلا أنه فى خلال الفترة ما بين عام ٦ ، ٩ ق . م استدعى إلى بافونيا لإخماد ثورة خطيرة قامت هناك وخلال هذه الفترة تراخت سيطرت الرومان على ألمانيا وبطريقة خطيرة . وكان الشعب الألمانى لا يرهبه إستعراض القوى الرومانية ، ولذلك عندما تراخت القبضة الرومانية حول الجرمان نظامهم العسكرى الفطرى على الفور إلى طاقة هائلة وجبارة ولم يعتمدوا على أحد فى تكوينها ولم

---

(١) كانت الفرقة المشاة تتشكل للقتال فى ثلاثة خطوط .

(٢) التشكيل المدرع عبارة عن ساتر متحرك من الجنود الذين يحملون الدروع ، بحيث يرفع جنود الصف الأول الدروع حتى تصبح أمامهم ، بينما يرفعها جنود الصفوف التالية فوق رؤوسهم وبذلك يصبح هناك غطاء من الدروع يحمى جميع القوات .

(٣) اللانسا عبارة عن حربة خفيفة .

(٤) تيبيريوس هو الأخ الربيب لأغسطس .

(٥) درسوس هو شقيق تيبيريوس . « المعرب »

يكلوا مطلقا . وقد وصف تاكيتوس فى كتابه « جرمانيا وسجلات التاريخ » الحرب بين الرومان والجرمان بطريقة واقعية وحية وشاملة ، فكانت فلسفة الجرمان كما يقول : —

« أعمل ببطء وتأن وبجهد لتحصل بعرقك ما يمكن أن تحصل عليه بأراقة دمك »

وقد وصف أسلوب حربهم كما يلى :

« كان القليل من الجرمان مسلحين بالسيوف أو الرماح الطويلة ، أما الغالبية العظمى فيحملون الحراب القصيرة وكانت تسمى فى لغتهم « فراميا »[١] وهى سهلة الاستخدام وتستعمل فى الالتحام القريب وأيضاً من المسافات البعيدة. أماتسليح الجندى الراكب فكان الدرع والفراميا أما المشاة فكانوا لا يرتدون أى ملابس للقتال ولكن فى بعض الأحيان يرتدون معاطفا ويحملون دروعا ذات ألوان مختلفةو القليل منهم لديهم دروعا واقية للصدر ونادراً ما يلبسون خوذات معدنية وعند القتال يطلقون قذائفهم من مسافات بعيدة ولذلك افتقروا إلى الشجاعة . أما الجياد فكانت هى الأخرى تفتقر إلى الجمال والسرعة وهذا أدى أن أصبحت القوة الرئيسية لقواتهم تتكون من المشاة ويعاونها الفرسان . وكان تشكيل القتال لديهم عبارة عن خطوط متداخلة فمكنهم هذا من الانسحاب ثم متابعة الهجوم ثانية وبطريقة تكتيكية سليمة . وكان يعتبر ترك الجندى لدرعه أعلى درجات الخزى والعار ومن يفر من ميدان القتال ينهى عاره على حبل المشنقة . وكان لهم رموزاً معينة وشعارات تحمل أثناء المعركة لرفع معنويات الجنود . وكانت روابط الأسرة والنسب من أقوى الحوافز للشجاعة والأقدام ونجد أن بعض المعارك الخاسرة إستعادتها النساء بصلواتهن الدائبة وأصرارهن على المحافظة على أعراضهن » .

القرابين لآلهة الألمان

بعد رحيل تيبيريوس أظهرت ألمانيا ولفترة من الوقت الهدوء الخادع، ولكن آرمينيوس قائد تشيروسى عام ٩ ب . م نصب كمينا لثلاثة فرق رومانية فى غابة تويتو بور جرفالد[٢]

(١) فراميا : عبارة عن حربة قصيرة ذات رأس حديدية مدببة وحادة .

(٢) تقع غابة تويتو بورجرفالد شمال غرب ألمانيا . « المعرب »

أثناء سيرهم خلال أدغال ومستنقعات الغابة فى يوم عاصف راعد وقد قام الألمان باطلاق وابل من رماحهم على القوات الرومانية مع مهاجمتهم بكل قوتهم طوال هذا اليوم العاصف حتى لم يعد فى مقدور الرومان دفع الألمان بعيداً عنهم .

وأدى هذا أن انتحر كل من بوبليوس كوينتيلوس[١] وأركان حربه، أما الجنود الذين لم يلقوا مصرعهم أثناء المعركة ، فقد صلب بعضهم أما البعض الآخر فقد دفن حيا أو قدم قربانا لآلهة الألمان .

وفيما بين عامى ١٤ ، ١٧ ب . م قام جيرمانيكوس بمحاولة لاخضاع المنطقة الواقعة بين الرين والألب ولكن واجهته صعوبات جمة بسبب طبيعة المنطقة المملوءة بالغابات والمستنقعات وقد استغلها قائد الأعداء آرمينيوس استغلالا كاملا ولصالحه ، إلا أن جيرمانيكوس استطاع أخيراً الحاق الهزيمة بآرمينيوس عند أديستافيسو[٢] ، وقبل هذه المعركة قام جيرمانيكوس بمثل ما قام به هنرى الخامس فى اجينكورت ، فأخذ يطوف بجنوده متنكراً تحت إسم مستعار وقد اكتشف بالرغم من هبوط معنويات قواته إلا أنهم يكنون له كل اخلاص وولاء . وقد تسلل بعض رجال العدو إلى خطوط قواته وأخذوا يغرون القوات بالهروب والانضمام إلى الألمان وبذلك يضمن كل منهم زوجة ألمانية ومالا وفيراً وأرضا يمتلكها ، إلا أن الجنود ردوا على هذا العرض بقولهم : ـ « أننا لن نعجز على الحصول على النساء الألمانيات بعد معركة الغد » .

وفى صباح اليوم التالى وقبل خوض المعركة تحدث جيرمانيكوس إلى جنوده وأصدر لهم تعلماته وأوامره بخصوص المعركة وما سيتبعونه من تكتيكات مع العدو وقد وعدهم بالنصر مما أدى إلى رفع معنوياتهم .

معركة اديستافيسو (أنظر اللوحة رقم ١١)

تقع أديستافيسو فى سهل منحنى بين نهر الويزر والتلال مع وجود غابة فى مؤخرتها وقد وصف تاكتيوس المعركة : ـ

---

(١) قائد القوات الرومانية .

(٢) على نهر الويزر غرب هانوفر .

« لقد إحتل الألمان السهل ومخارج الغابة بينما إحتل الشيروسيكيون وحدهم التلال للقيام بالهجوم عند بدء المعركة . وقد تحرك الجيش الرومانى بدفع احتياطى من الغال والجرمان فى الامام يتبعهم حملة الأقواس المترجلين ثم أربعة فرق[١] رومانية فجير مانيـكوس نفسه ويحيط به كتيبتين من الحرس والفرسان ثم أربعة ألوية[٢] أخرى .

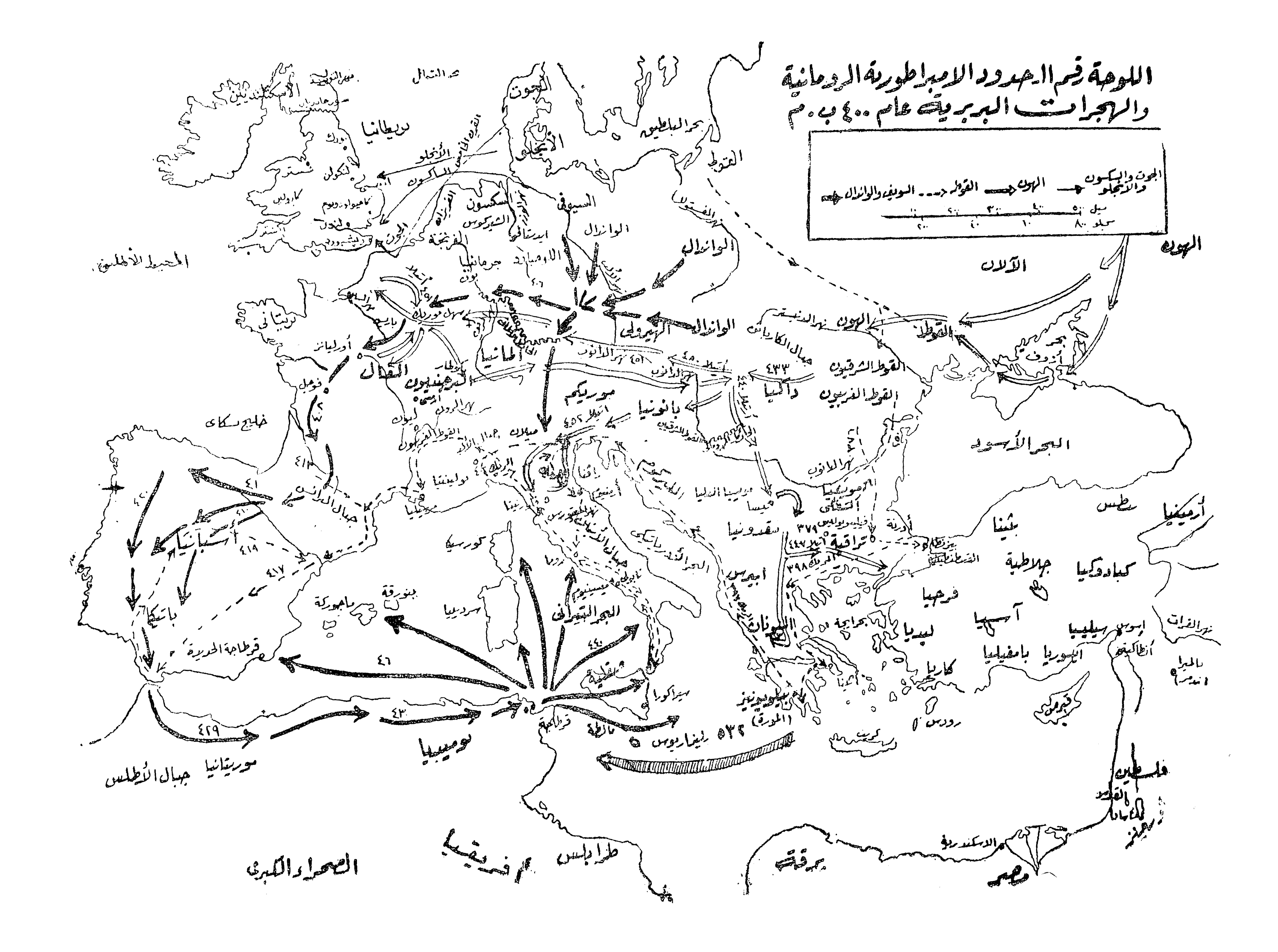
وكانت تسير القوات فى حالة إستعداد كامل لاتخاذ تشكيل المعركة عند اصطدامها بالعدو. وعند إقتراب الرومان من أديستافيسو قامت وحدات الشيروسى بهجوم خاطف مركز عليهم، وهنا أمر جيرمانيـكوس أفضل فرسانة بمهاجمة أجنحة العدو بينما تلتف باقى فرسانه لمهاجمة مؤخرة العدو ، بينما بقى جيرمانيـكوس على رأس باقى الجيش ينتظر اللحظة الحاسمة للهجوم، وأثناء ذلك رأى فألا حسنا، فكان يطير ثمانية نسور نحو الغابة ، فعلى الفور صاح «إلى الأمام.. إتبعوا نسور روما .. » فعلى الفور إندفعت المشاة بالهجوم بينما كانت الفرسان تهاجم أجناب ومؤخرة الألمان ، فما كان من الشيروسيين أن فروا من المنحدرات بينما حاول آرمينيوس الأبقاء على سير المعركة ولـكن قواته أصبحت بأكملها فى مواجهة رماة جيرمانيـكوس وتعرضت لوابل الرماح ، فما كان من آرمينيوس أن فر هو الآخر وأخفى معالم وجهه بتلطيخه بالدماء حتى يتجنب التعرف عليه بينما واجهت باقى قواته مذبحة مروعة ، فمن حاولوا عبور نهر الويزر تـكفلت بهم رماح الرومان أو جرفهم تيار النهر ، أما الذين إرتضوا الخزى والذل وهرعوا يتسلقون الأشجار ليختبئوا بأغصانها مرتعدين فقد واجهوا أسوأ مصير لأنهم أصبحوا أهدافا سهلة وأخذت رماة جيرمانيـكوس يلهون برميهم بالسهام وإسقاطهم من فوق الأشجار وقد إستمرت عملية الذبح من الظهر حتى الغسق » .

وكان من الممكن أن يتقدم الرومان بعد ذلك نحو الألب ، ولـكن وضح أن الألمان لن يقبلوا أبداً المهانة تحت حكم الرومان ، ولذلك تراجع الرومان بعد حملات جيرمانيـكوس شبه المنتصرة نحو الرين حتى يستطيعوا الاحتفاظ بحدود يسهل الدفاع عنها نسبياً .

---

(١) كانت الفرقة تتشكل من المشاة الخفيفة وحملة الأقواس الراكبين .

(٢) بانضمام المشاة الخفيفة ورماة الأسهم الراكبة إلى كل لواء فأدى هذا أن وصلت قوة اللواء إلى قوة فرقة . « المعرب »


اللوحة فيه الحدود الامبراطورية الرومانية
والهجرات البربرية عام ٤٠٠ ب.م
الجوت والسكسون والانجلو
الهون
القوط
السويف والواندال
الهون
الآلان
القوط
البحر الأسود
بحر البلطيق
بريطانيا
المحيط الأطلسي
الغال
ألمانيا
الواندال
السيوفي
داكيا
القوط الشرقيون
القوط الغربيون
بانونيا
موريكم
أسبانيا
جبال البرانس
خليج بسكاي
قرطاجة الجديدة
قرطاجة
البحر التيراني
كورسيكا
سردينيا
صقلية
نوميديا
موريتانيا
جبال الأطلس
الصحراء الكبرى
افريقيا
طرابلس
برقة
مصر
الاسكندرية
فلسطين
أرمينيا
طرس
بثينيا
غلاطية
كبادوكيا
فرجيا
آسيا
ليديا
كاريا
ليكيا
بامفيليا
ايسوريا
سيليسيا
قبرص
رودس
كريت
اليونان
ابيروس
مقدونيا
تراقية
القسطنطينية
بيزنطة
نهر الدانوب
نهر الراين
نهر الفرات
انطاكية
أنطاكية
الجرمان
نهر الرون
البرجنديون
ميلان
رافنا
روما
ليثاريوس ٥٣٣

ومن المظاهر العميقة لتطور تاريخ ألمانيا وبالتالى تاريخ أوروبا هو فشل الجيوش الرومانية فى البقاء بألمانيا مما أدى أن الحضارة الرومانية لم تنفذ إليها .

الرومان يواجهون بريطانيا ورومانيا (أنظر اللوحة رقم ١١)

فى عام ١٤ ب . م توفى أغسطس ومن بعده لم تتوسع الأمبراطورية الرومانية إلا بغزو بريطانيا وداشيا[١] . وفى عام ٤٣ ب.م قام أولوس بلوبتوس بالنزول على الشاطىء البريطانى عند ريتشبورو ومعه أربعة فرق وقوات إحتياطية حليفة ، وبعد قتال إستمر يومين استطاع دفع القوات البريطانية إلى الغرب عبر نهر التيمز واستولى على مدينة كوميولودونوم[٢] وفى الفترة ما بين ٤١ — ٥٤ ب . م حضر الأمبراطور كلاديوس بمزيد من القوات وعدد من الفيلة ، واستطاع تدريجيا اخضاع جنوب بريطانيا من ليفكولن إلى اكستر[٣] . وفى عهد دوميتيان أصبحت قوة الداشيان تحت قيادة القائد دكيباليوس تشكل خطراً كبيراً على جبهة الدانوب ، فقدأبادوا فى عام ٨٧ب. م قوة رومانية كبيرة. وأدى هذا أن قرر الأمبراطور تراجان[٤] (٩٨ — ١١٧) مهاجمةدكيباليوس ، وقام بحملتين ضده الأولى عام ١٠١ والثانية ما بين عامى ١٠٥ — ١٠٦ .

وكانت مقاطعة داشيا من المقاطعات التي يصعب السيطرة عليها لوقوعها على الضفة الأخرى لنهر الدانوب وفى المسار الطبيعى للتحركات البربرية ، مما أدى أن قرر الأمبراطور أورليان فى عام ٢٧٣ تركها نهائياً .

الثورة فى فلسطين

وفى الفترة بين عام ٦٦ ، ٧٣ م إشتعلت الثورة فى فلسطين وكانت تتمتع بتحصينات منيعة ، وقال عنها سيدنى تونى : ــ « لقد كانت من أروع الأعمال الهندسية العسكرية » . ولذلك سخرت روما جميع إمكانياتها المتاحة من مهارات وموارد لإخماد هذه الثورة فكانت مدينة القدس محصنة بثلاثة أحزمة من الأسوار ، الخارجى منها سمكه ١٥ قدما وإرتفاعه ٣٠ قدماً ومزوداً بفتحات للرمى منها ومدعم بأبراج مربعة الشكل وعلى أبعاد مختلفة . وكانت

---

(١) داشيا : هى رومانيا حالياً . (٢) هى كولشستر الآن .
(٣) يسمى بطريق فوس . (٤) الامبراطور تراجان أسبانى الأصل . « المعرب »

معدات الحصار الرومانية تستطيع التعامل مع هذا المستوى من الأسوار .. وقد استعمل تيتوس آلات يمكنها قذف الحجارة زنة ١٠٠ كيلو لمسافة ربع ميل ، كما كان لديه ثلاثة أبراج حصار ارتفاع كل منها ستون قدما ومغطى من أعلى بشرائح من الحديد .

وقد أستطاع الاستيلاء على الأسوار الواحد تلو الآخر ، وفى أغسطس ٧٠ تمكن من الاستيلاء على القدس وذبح جميع سكانها ، وبالرغم من كل هذا فلم يتم سحق التمرد بالكامل فكان يوجد حتى عام ٧٣ فلول من هؤلاء المتمردين فى ما سادا[1] التى تعتبر معقلهم الحصين، لأن هذه المدينة تشبه إلى حد كبير حصون العصور الوسطى وبالرغم من ذلك هاجمها الرومان ودخلوها إلا أنهم لم يجدوا بها أحداً من المدافعين أو المقاتلين بل وجدوا بدلا من ذلك جثث الجنود وعائلاتهم متناثرة فى أنحاء المدينة ، فقد قتل بعضهم البعض حتى لا يأخذهم الرومان أسرى وهم على قيد الحياة .

حائط الشيطان (أنظر اللوحة رقم ١١)

فى القرن الأول بعد الميلاد أستتب الأمن على الحدود ، وتحول الجيش الرومانى من جيش هجومى إلى حاميات دفاعية ، وأدى هذا أن أصبحت المعسكرات دائمة وزاد تعقيدها ، ففى عهد أغسطس كانت المعسكرات فى منطقة الراين لها أسوار عالية مبنية من اللبن ، إلا أنها بعد ذلك بنيت من الحجارة فى الفترة ما بين ٧٠ — ٩٦ . وكان التصميم العام للمدينة العسكرية أو المعسكر مثيراً ، لأنها تحاط بأسوار عالية وبخندق مائى أو أكثر مع تزويدها بالأبراج ولها بوابة رئيسية توجد فى مواجهتها مبانى الشئون الإدارية وكذلك مقر إقامة قائد المعسكر بالإضافة إلى المخازن الرئيسية للمعسكر . ويوجد داخل المعسكر طريقين متقاطعين وعمودين ، علاوة على طريق آخر يدور حول سور المعسكر من الداخل . أما ثكنات الجنود فتحتل الجزء الأكبر من المعسكر علاوة على وجود سوق عام بجوارها .

وفى الفترة مابين عام ٧٠ — ١٣٠ وخلال عهد كل من فيسبازيان ودوميتيان وهادريان إستمر العمل فى تقوية تحصينات الحدود وبالرغم من ذلك لم يكتمل الستار الحديدى الرومانى

---

(١) كانت قلعة ماسادا محاطة بمساحة كبيرة من الأرض ومسورة بحائط ضخم يعتبر كواق للقلعة . « المعرب »

إلا فى السنوات الأولى من القرن الثالث ، فإذا ألقينا نظرة على الجبهة الألمانية فنجد أن خط التحصينات إمتد ٣٠٠ ميل بين نهرى الراين والدانوب ، وكان الجزء الغربى من هذا الخط عبارة عن متاريس مبنية من اللبن ومحاطة بالخنادق ، أما الجزء الشرقى والذى أطلق عليه « حائط الشيطان » فكان عبارة عن سور حجرى يبلغ سمكه ٤ أقدام وتم تقوية كل من الجزئين بأبراج عديدة للمراقبة والأشارة ومعسكرات مبنية من الحجارة . وقد أنشأت أسوار مماثلة على طول الحدود الشرقية والجنوبية للأمبراطورية وكذلك فى شمال بريطانيا .

بودكيا تنتحر بالسم

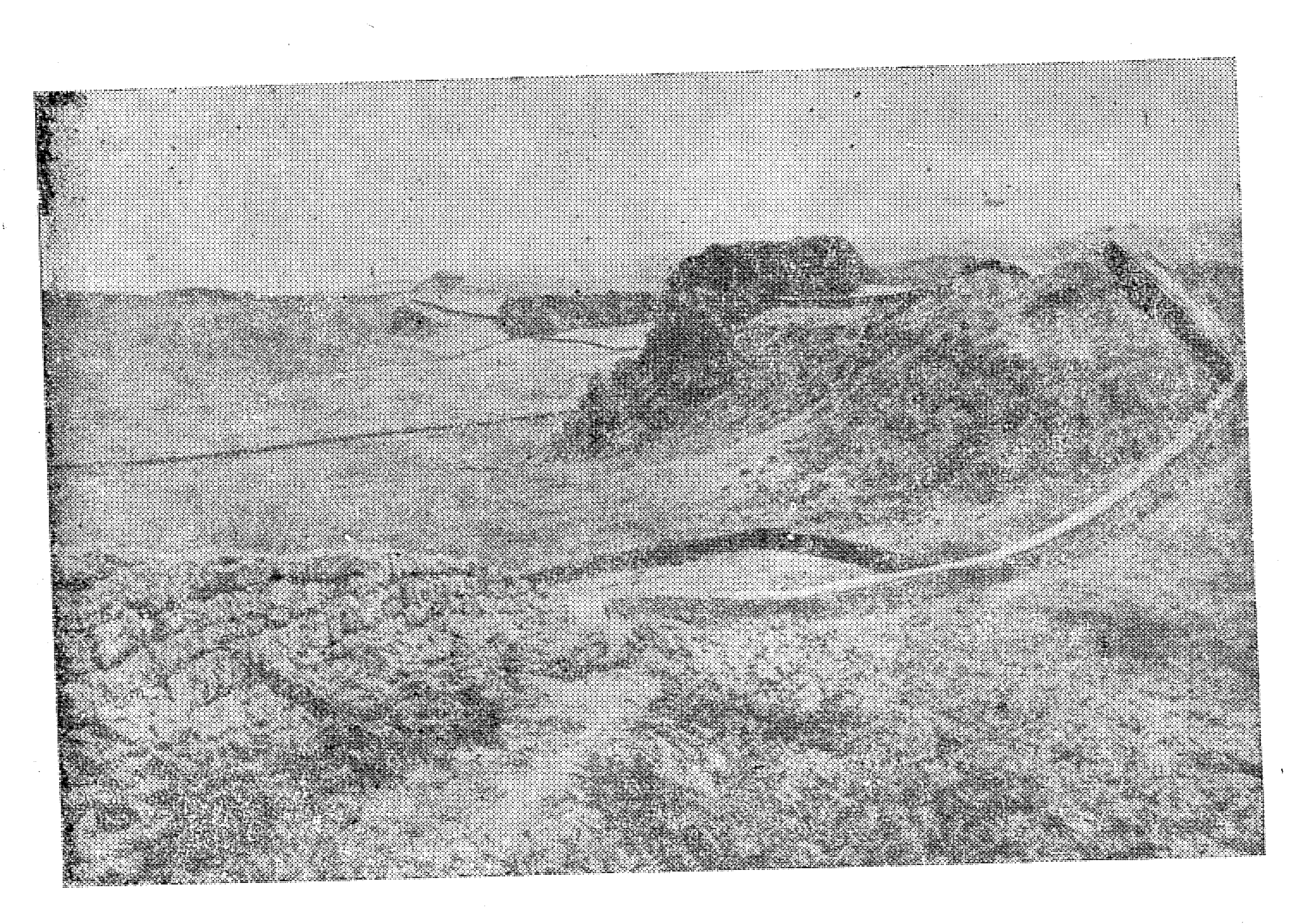
يعتبر إحتلال وتحصين بريطانيا مثلا حياً للسياسة العسكرية الرومانية وتأمين حـدودها المترامية الأطراف . وعلى كل لم يلق الرومان إلا مقاومة طفيفة فى الجنوب الشرقى لبريطانيا وقد اعتبر الرومان طريق فوس الخط الدفاعى الرئيسى لهم بالرغم من أنه مجرد طريق عادى، وكانت بريطانيا عامة تعتبر من الجبهات الهادئة بالنسبة للأمبراطورية الرومانية ، وبالرغم من ذلك لم يستطع الرومان التقدم ما بعد طريق فوس . وقد قام شعب ويلز بمقاومة الرومان مدة ثلاثون عاماً تحت قيادة كاراكتا كوس . وفى عام ٦١ قادت بودكيا[١] ثورة وحشية ضد الرومان فى شرق بريطانيا حتى هذه الثورة قمعت بطريقة غاية فى القسوة، مما أدى أن بودكيا انتحرت بالسم وفيما بين عام ٨٠ — ٨٤ زحف القائد الرومانى آجريكولا نحو شمال بريطانيا حتى وصل إلى قلب اسكتلندا حيث حقق نصراً حاسماً على القبائل الكاليدونية المتحالفة عند مونس جرابيبوس، وقد أظهرت هذه القبائل حماقة كبيرة بدخولها مع الرومان فى معركة مفتوحة ، ولم يقـاتلوهم بحرب العصابات ، وبعد ذلك عاد آجريكولا إلى بلاده مما أدى إلى انسحاب الرومان إلى جنوب نهر التويد وحتى ذلك الوقت لم ينشأ الرومان جبهة دفاعية متماسكة فى شمال بريطانيا .

وفيما بين عام ١١٥ — ١٢٠ قامت ثورة عارمة فى شمال بريطانيا هزت الرومان بعنف مما أدى أن حضر هادريان نفسه إلى بريطانيا ليخمد الثورة ، واستطاع إخمادها وإقامة جبهة دفاعية رومانية فى شمال بريطانيا . وقد أقام هادريان سوراً سمى باسمه وقد تم بنائه فى الفترة ما بين ١٢٢ — ١٢٥ ويمتد مسافة ٧٣ ميلا من نهر تاين إلى سولواى ومبنى من الحجارة ويبلغ

---

(١) بودكيا أرملة زعيم قبيلة الأيسينى . « المعرب »

سمكه ½ ٧ قدما وفى أجزاء أخرى كان سمكه يزيد عن ذلك ، والجزء المخصص لسير الجنود على السور كان يقع على أرتفاع ١٥ قدما تقريباً ، وعندما يقترب السور من المدن يلتف حولها وقد تم إختيار مكانه بحيث يستفاد من الهيئات الطبيعية مثل قمم التلال أو الجروف الحادة ،وروعى أن تقع هذه الموانع الطبيعية دائماً شمال السور ، أما فى الأراضى المنخفضة فيتم حفر خندق بجوار السور لزيادة فاعليته وتم إنشاء ستةعشر حصناً[1] على طول السور ووزعت القوات عليها علاوة على وجود قلاع مقامة على السور تبعد عن بعضها ميلا رومانى[2] ويوجد بين كل قلعتين ثلاثة أبراج تستخدم كمراكز للمراقبة والإشارة . وكان يعتبر سور هادريان ما نعاً أكثر من أنه خط دفاعى ، وعلى كل لم يتعرض هذا السور لعمليات غزو على مستوى



سـور هادريان فى شمال بريطانيا

---

(١) كانت المسافة بين كل حصن حوالى أربعة أميال .

(٢) الميل الرومانى ألف خطوة . « المعرب »

كبير إلا أنه كان يشكل عائقاً صعب الأجتياز أمام الغارات الصغـــيرة ويمثل مركز جيد للحراسة فقط .

وإذا ألقينا نظرة على شمال بريطانيا خلال القرن الثانى لوجــدنا أن الفوضى أستمرت ونخص بالذكر ثورتان الأولى فى الفترة ١٥٨ — ١٦٠ والثانية فى ١٨٣ . وفى الفترة ٢٠٨ — ٢١١ حضر الإمبراطور سيبتيميوس سيفيريوس إلى بريطانيا وأقام بها واستطاع السيطرة على الموقف وأعادة الأمن إلى شمال بريطانيا .

وقد أتم أخضاع بريطانيا بواسطة أربعة فرق رومانية ، ولــكن بعد عام ٨٥ بقى بها ثلاثة فرق ومعها قوات إحتياطية ضئيلة تقدر بحوالى ٣٥ — ٤٠ ألف جندى ، ووزعت هــذه القوات على ثلاثة حصون ، وهى حصن كارولين وشستر ويورك . وتدفع هذه القوات من هذه الحصون إذا أستدعى الأمر لأخماد الثورات التى تنشب ، وعلاوة على هذه الحصون كانت توجد حصون صغيرة يبلغ مساحة الحصن الواحد من ٧ هكتار[1] ويدافع عن هذا الحصن[2] من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ جندى من القوات الإحتياطية . وقد أقيمت معظم هــذه الحصون فى شمال بريطانيا وويلز على طول الطرق الهامة وفى المراكز الأستراتيجيــة . وقد أقام الجيش الرومانى شبــكة كبيرة من الطرق لخدمة الأغراض العسكرية وعلى سبيل المثال أنشىء فى شمال بريطانيا ثلاثة طرق رئيسية تربط بين المدن الرئيسية بها . وكان أنشأ الطرق الرومانية من أهم المنجزات التى حققها الجيش الرومانى والتى بقيت على مر الزمن حتى وقتنا الحالى ، ولم تتوان الإمبراطورية الرومانية فى هذا المضمار وفى جميع البلدان التى تحــكمها وبذلك أستطاع الجيش الرومانى من توحيد جميع هذه البلدان والمماليك تحت الحــكم الرومانى علاوة على نشر وبث الحضارة الرومانية .

قرعة العشرة

خلال القرنين الأولين للأمبراطورية لم تحدث إلا تغييرات طفيفة فى الجيش الرومانى وكانت هذه القوات توزع على أنحاء الإمبراطورية حسب الموقف العسكرى والسياسى للمناطق .

---

(١) الهــكتار : عبارة عن ٤٠٠٠ متر مربع

(٢) كانت المسافة بين هذه الحصون حوالى ١٥ إلى ٢٠ ميلا .

« المحرب »

وفى الفترة من ١١٧ إلى ١٣٥ قام هادريان ببعض التغييرات الهامة فى الأسلوب والنظام العسكرى والذى وضع أساسه من قبل أغسطس فقام أولا بتكوين قوات أجنبية ومجندة محلياً مع دفعها للأمام وأستخدامها فى الخط الدفاعى الأول، أما الفرق الرومانية فكانت تتمركز فى الخطوط الخلفية وفى الحاميات، وهذه الفرق تربط بالخطوط الأمامية بواسطة طرق جيدة، ثم قام ثانيا بأذابه الفوارق التى تميز قوات الفرق الرومانية عن القوات الأجنبية المجنده محليا وثالثاً وجد أن الفرق كانت تشكل من الناحية النظرية من الجنود الرومان فقط على أن يخدموا فى مناطق غير التى جندوا منها ولكنه وجد من الناحية العملية أن الفرق تجند من المناطق التى ستتمركز فيها، وقد أثبتت الظروف أن هذه الطريقة ملاءمة تماماً للدفاع عن الحدود المكشوفة وذلك بأستغلال قوات من أهل المناطق المتاخمة لهذه الحدود للدفاع عنها لأن ذلك يعنى أنهم سيزودون عن أراضيهم وبيوتهم ولذلك غير هادريان هذه النظرية وأصبحت الفرق تضم مجندين من نفس المنطقة وكانت الجنسية الرومانية تمنح فوراً لمن يقيد أسمه فى سجل المجندين .

إلا أن هذه السياسة كان يهددها خطران : —

١ — أحتمال ضياع فكرة الوحدة الأمبريالية لعدم وجود ترابط بين القوات فى الجبهات المختلفة وأسوأ مثال يثبت ذلك ما حدث عام ٦٩ عندما ثارت الجيوش لمؤازرة ثلاثة مرشحين لمنصب الإمبراطور وذلك قبل أن يتمكن المرشح الرابع فيسبازيان من تأمين الموقف بواسطة جيوش الشرق والدانوب التى كانت تؤازره .

٢ — أنحلال قوات الحاميات وتحويلها إلى ميليشيا[١] محلية من الفلاحين الكسالى غير الأكفاء فى القتال، فكانوا واثقين من دوام السلام الإمبريالى ومعتمدين على الحياة السهلة، وقد حدث أكثر من مرة أن جنود المناطق رفضت الأنتقال إلى مناطق أخرى، وأشتهرت فرق الحدود الشرقية بضعف كفاءتها وسوء تنظيمها إلا أن كوربيولو[٢] جاء وأستطاع إستعادة النظام والضبط والربط بواسطة إجراءات غاية فى القسوة، فكان عقاب

(١) ميليشيا : — قوات الحرس الوطنى .

(٢) كوربيولو قائد رومانى فى الشرق .

السرقة وعدم الكفاءة الجسمانية الجلد وينفذ بأوامر من قادة السرايا ، أما الهروب من الخدمة العسكرية فعقابه الموت ، وأدى هذا أن أحدى جيوش الحاميات إكتسبت قدراً كبيراً من الصلابة بالتدريب المستمر الشاق فى المرتفعات الأرمينية فى فصل الشتاء .

وكان أقسى عقاب يمكن تطبيقه ما يسمى « قرعة العشرة[1] » وكان ذلك يحدث نادراً ولكن فى عام ٢٠ طبقت هذه القرعة بواسطة أبرونيوس[2] بأن اختار واحداً من كل عشرة رجال من الكتيبة التى هربت أثناء المعركة وتم جلد كل من هؤلاء حتى الموت .

أما الوحدات التى ترتكب ما يلحق بها العار فكانت تسرح بأكملها ، فقد قام فيسبازيان بتسريح أربعة فرق فقدت نسورها أثناء المعركه أو اشتركوا فى التمرد الذى حدث فى الراين والذى قاده الزعيم كفيليس عام ٦٩ ، وقام على الفور بتشكيل فرقتين جديدتين حلا محلهم . ومن ضمن قوانين الضبط والربط أن يعزل قائد السرية المذنب من رتبته .

الخدمة العسكرية عشرون عام

وقد قام هادريان بصفة خاصة بمهاجمة مافى الجيش من رفاهية وضعف المستوى القتالى للقوات ولكنه فى نفس الوقت قام بإعادة تنظيم وقت فراغ الجنود وجعل حياتهم أكثر صفاءاً ، كما قام بتحسين وضعهم القانونى وحالتهم الاجتماعية .

وعلى كل كانت الحياة فى الجيش تتصف بالأستقرار ولكنها كانت مملة وكئيبة ، فمثلا كان من الشروط الرئيسية للخدمة العسكرية أن مدتها عشرون عاما يتم بعدها تسريح الجندى من الجيش وخلال الأربع سنوات الأخيرة من الخدمة كان يعفى الجندى من جميع أعمال المعسكر المرهقة لأنه يعتبر محارب قديم محنك ويخدم فى الإحتياط .

وكان الجندى مجبراً على صرف ٧٥ ٪ من مرتبه، فعليه أن يشترى طعامه وسلاحه وزيه العسكرى ويساهم أيضاً بمبلغ يدفعه سنوياً للمعسكر مع دفع مبلغ آخر يخصص لدفن الموتى من الجنود ، ولذلك كانت الفرصة ضئيلة أمام الجندى ليدخر من مرتبه إلا إذا قام بأعمال تجارية

---

(٣) قرعة العشرة : — أختيار الرجل الذى يقع فى قرعتة رقم عشرة من بين عشر رجال وقتله « المعرب »

(٤) أبرونيوس حاكم أفريقيا

غير مشروعة ، وكان يوجد بنك فى المعسكر ليشجع الجنود على الإدخار به لتزداد مدخراتهم من المنح الإمبراطورية فى المناسبات وكان يتعامل معه قلة . وكان ممنوع على القوات من رتبة نقيب فأقل الزواج ، ولكن الكثير منهم كانت لهم علاقات نسائية وكان مسموح بها .

وكان يوجد بالجيش الرومانى عديد من المكافآت والقلادات والأنواط العسكرية ، فمثلا كان القائد المنتصر يسمح له بالسير على رأس موكب النصر فى شوارع روما تكريماً له ، ويمنح « إكليل الغار » للبطولة الفائقة فى الجيش الرومانى ، وتعتبر أكبر جائزة فى الدوله. وقد قام تيبريوس بتقديم « إكليل الغار » لريفيوس هلفيوس[١] عام ١٩ ، كما كان هناك نوط أطلق عليه « كورونا فالاريس[٢] » وتمنح لأول جندى يتسلق سور العدو ، أما نوط « كورونا أوريا[٣] » فتمنح للنقباء الذين يبلون بلاءاً حسناً فى ميدان القتال ، كما كان هناك أنواع أخرى من القلادات تمنح للضباط منها « رأس الحربة المصنوع من الفضة » علاوة على أوسمة أخرى .

أما الجنود فيمنحون أساور أو عقود أو أقراص مزخرفة .

الصراع من أجل العرش

لقد وصف فيجيتس الكاتب العسكرى الأسلوب التى تتبعه الفرقة فى وقت السلم فقال : « كانت مشاة الفرقة تسير مسافة عشرة أميال ثلاث مرات فى الشهر وتزداد هذه المسافة بالتدريج حتى يكتسب الجنود اللياقة والسرعة فى التقدم والإنسحاب . وكانت الأوامر تعطى شفوياً أثناء التدريب فى الميدان ويختار الأسلوب التكتيكى المناسب للرد على هجوم العدو المفاجىء والكمائن غير المنتظرة . وكان هناك تركيز ملحوظ على التدريب على جميع أنواع الأسلحة والأسلوب التكتيكى المناسب للمعركة وذلك للوصول إلى مستوى عالى من الضبط والربط بين القوات » .

---

(١) ريفيوس هلفيوس جندى فى الجيش الرومانى أنقذ حياة زميل له فى إحدى المعارك فى أفريقيا .
(٢) عبارة عن قلادة مزدوجة من المعدن تلبس على الصدر .
(٣) القلادة المنفردة

ولم يهدأ النشاط العسكرى فى الإمبراطورية الرومانية على مر السنين وقد شهد القرن الثانى التطبيق الكامل لأهداف وتعاليم أغسطس وقد أكد جيبون قائلا : « لو أردنا تحديد الفترة التى تمتع فيها الجنس البشرى بقمة السعادة والرفاهية لوجدنا أنها تنحصر بين موت دوميتيان حتى إرتقاء كومودیوس العرش (٩٦ — ١٨٠) ».

وقد تغيرت الأمور فى نهاية القرن ، فبعد موت كومودیوس عام ١٩٢ كان الصراع على أشـــده على العرش ، فقام الحرس البريتورى بقتل بيرتينا كس وأحلوا محله ديديوس بوليانوس ولـكن كان هناك مرشحا ثالثاً وهو سيبتيميوس سيفيروس[١] .

وكان سيفيروس أفضل العسكريين الذين يطمعون فى كرسى العرش واستطاع هزيمتهم عند كل من إيسوس وليونز واستولى على العرش .وفى عهد سيفيروس سيطر الجيش بالقوة على مقاليد الأمور مما أدى أن حلت الكوارث بسياسة روما الداخلية والخارجية لأنه خلال القرن الثالث تحتم على كل أمبراطور يريد الاحتفاظ بعرشه أن يرشو ويشبع جميع رغبات العسكريين ، ولذلك رفع سيفيروس أجور الجنود بنسبة الثلث كما صرح لهم بالزواج وزراعه مايمتلكونه من أراضى بجوار معسكراتهم ، كما منح قادة السرايا مميزات مادية واجتماعية. وقبل موته أوصى إبنه كاراكلا بأن يعتنى بالعسكريين ويهمل باقى الشعب فيضمن السلطة ، وقد نفذ كاراكلا وصية والده . وفى بحر الستون سنة التالية ارتفع وهوى ما يزيد على واحد وعشرين من الأباطرة .

وتميزت هذه الفترة بالفوضى والبؤس ، فقد أشاع الجيش الرعب فى جميع أوجه الحياة المدنية فى جميع أنحاء الأمبراطورية ، فى نفس الوقت كان هذا الجيش يهوى هو الآخر فى متاهات الانحطاط حتى فقد كفاءته القتالية ، ففقدت الحدود أمنها إلى الأبد وحدث تضخم مالى وصل إلى حد الـكارثة نتيجة للارتفاع المتزايد والمستمر فى الأجور والتى أجبر عليها الأباطرة لتقديمها للجيش إذا أرادوا الاحتفاظ بعروشهم وتيجانهم . وفقدت التنظيمات والاصلاحات التى قام بها هادريان فى الجيش قيمتها وفائدتها . فأصبحت القوات المتمركزة باستمرار على الحدود تتكون أساساً من فلاحى هذه المناطق وأصبحوا لا يهتمون ولا يعيرون أى اهتمام بواجباتهم

---

(١) سيبتيميوس سيفيروس : — كان يشغل منصب حاكم بانونيا « المعرب »

العسكرية ، وأكثر من ذلك أصبحت القوة الدفاعية على الحدود غير فعالة فكان الضعف متفشى فى كل مكان ،واختفت القوة والعزم فى جميع الأمبراطورية فلم يكن هناك دفاع فى العمق أو قوات احتياطية لتقوم بالهجوم المضاد ضد المعتدى . وفى عام ٥٢٠ بدأت الروح القتالية للفرق فى التدهور ، وأصبحوا فى حاجة ملحة لتكتيك جديد ومستحدث ليستخدم ضد الأعداء الجدد الذين يقاتلون بأسلوب تكتيكى جديد ، أصبح غريبا بالنسبة للرومان . وقد كشف هذا عوامل النقص الموجودة فى القوات الرومانية وأسلوبهم التكتيكى .

وعلى العموم فقد قام ثلاثة[١] من الأباطرة فى النصف الثانى من القرن الثالث بإعادة تنظيم الجيش الرومانى مع دفع الأمبراطورية للامام مرة أخرى ، وقد نفذ هذا العمل بطريقة بغيضة ولا تقبل التردد أو الشك ، ولذلك استطاعت الأمبراطورية من الصمود أمام النهاية المدمرة لمدة قاربت على القرنين .

التنين البربرى

لقد اتخذت إجراءات صارمة لاستعادة النظام فى كل مكان من المحيط العسكرى والمدنى، ففى عهد دقلديانوس اصطبغت الحكومة المدنية بالصبغة العسكرية فأصبحت أقوى من ذى قبل. وفى عهد أورليان انتشر الطاعون فتسبب فى خفض القوى البشرية ، فاتخذ أورليان خطوة خطيرة جداً بتكوين القوات الاحتياطية من قبائل الواندال والألمان[٢] ، وبذلك قهر البرابرة الأمبراطورية عن طريق التسلل أكثر منه عن طريق الحرب . وفى ذلك الوقت اتخذ الأباطرة حرس خاص لهم من الجنود الألمان ، وقد سمح للجنود الألمان بالاحتفاظ بزيهم الوطنى وبتقاليدهم ، واختفى شعار النسر الرومانى وحل محله شعار التنين البربرى .

حاول دقلديانوس رفع حجم الجيش إلى ستون فرقة ، ولكن كان معظم هذه الفرق دون المرتب[٣] ولكنه نجح فى إنشاء شبكة طرق وإقامة التحصينات ، لأن العمل فيهما كان على قدم وساق . وأصبح الجيش فى هذه الفترة جيش طبقى يورث للابناء ، فكان يتحتم على أبناء

---

(١) الأباطرة الثلاثة هم جالينوس وأورليان ودقلديانوس

(٢) كانت هذه القبائل الجرمانية تزحف بكثرة وبصفة خاصة على الحدود الشمالية للأمبراطورية .

(٣) مرتب الفرقة المعتاد ستة آلاف جندى «المعرب»

الجنود ، أن يتبعوا أباءهم ليصبحوا جنود المستقبل ، وعادت قوانين التجنيد الماضية مرة أخرى إلى الحياة .

ملكة ميدان المعركة

لقد أدرك جالينوس الخطأ الاستراتيجى الممثل فى سياسة الحاميات والتى استمر العمل به على الحدود لمدة ٢٥٠ عاما فقام على الفور فى تشكيل الجيوش الاحتياطية وكان ذلك على حساب قوات الحدود التى أصبحت ضعيفة ، وأقامت هذه الجيوش الاحتياطية فى قاعدة فى شمال إيطاليا لتوفر الدفاع فى العمق مع قدرتها على القيام بالهجوم المضاد فى حالة الطوارىء ، كما ألغى الأسلوب التكتيكى القديم وأدخل بدلا منه أسلوبا جديداً يتناسب مع أعدائه الجدد الذين يستخدمون الهجوم المفاجىء بالفرسان مع استعمالهم للقذائف النارية بعيدة المدى .

وقد قام جالينوس بخطوة حاسمة فجعل فرق المشاة فى المرتبة الثانية ، بينما أخذت الفرسان الصدارة ، وبذلك أصبحت الفرسان ملكة ميدان المعركة .

وتشكل فى عام ٢٥٨ فرقة من الفرسان سميت بـ « دالمتيان » وفرقة من حملة الرماح[١] سميت بـ « موريش » ، وكان الرماة الشرقيين[٢] هم عمادها وعلاوة على وجود فرق تستخدم حراب القذف الايرانية الطويلة ، وفرق أخرى من مشاة البربر[٣] ، وفرق من راكبى الجمال والفرسان الثقيلة ، علاوة على إدخاله لبعض الأنواع الجديدة من الأسلحة ، فاستبدل كل من حربة القذف والسيف القصير[٤] بالرمح والسيف البربرى[٥] .

فراغ القوى

(أنظر اللوحة رقم ١١)

لقد أعاد تجهيز القوات سريعا جداً وتحت الضغط المتزايد للعدو على الحدود ، فنجد مثلا أن الأمبراطورية الساسانية الفارسية هددت روما بحرمانها من جميع مقاطعاتها الشرقية ، وفى عام ٢٦٠ سقط فاليران فى الأسر بواسطة الحاكم الفارسى سابور ، فضاعت هيبة

---

(١) كانت هذه الفرقة من المغاربة وتركب الخيول بدون سروج

(٢) هؤلاء الرماة يستخدمون الأقواس القوية المركبة

(٣) يستخدمون هؤلاء البربر التشكيلات المتداخلة فى القتال

(٤) كان يستخدمه جنود الفرق

(٥) يتدلى هذا السيف من ثوب المقاتل

« المعرب »



الفرسان الرومانية تأخذ الصدارة فى الجيش

الأمبراطورية الرومانية وظهرضعفها بوضوح ، ولـكن لحسن الحظ أنإستطاع أوديناتوس[1] صد هجمات القوات الفارسية ، ولـكن الموقف ساء جداً على الحدود الشمالية أيضاً ببدأ الهجرات البربرية .

ولو عدنا سويا إلى الوراء فسنجد أن القيصر بعد أنهزم الغال والتى تعتبر القوة الرئيسية لـكل من وسط وغرب أوروبا أحدث بذلك ما يسمى بفراغ القوى فى كل من شمال وشرق الحدود الرومانية ، لذلك بدأت شعوب جديدة فى التحرك داخل هذه المنطقة ، وجاءت أولى هذه التحركات من أسكندنافيا تحت وطأة تغير المناخ هناك وزيادة السكان ، إلا أن هؤلاء أنفسهم بدأوا التحرك فى القرن الثالث وبدرجـــة أ كبر نحو الجنوب والغرب أمام التدفق الجديد للشعوب المهاجمة من آسيا ، بينما اندفع الفرنجة والألمان عبر نهر الراين وزحف القوط جنوبا عبر الدانوب وأجتاح القوط الشرقيون مناطق البلقان ونهبوا مدينة فيليبوبوليس وهزموا الأمبراطور ديكيسوس ، وقد قتل فى أحدى المعارك عام ٢٥١ ، بينما فقدت روما مقاطعة داشيا إلى الأبد .

ولـكن فى عام ٢٦٨ استطاع كلوديوس الأنتصار على القوط عندنا « يسوس » (فيشى) وبذلك أوقف تقدمهم .

وفى أقصى الغرب عبر الألمان نهر الراين واندفعوا جنوبا داخل إيطاليا نفسها إلا أن جالينوس هزمهم عند ميلانو عام ٢٥٨ ، إلا أنهم قاموا بهجوم آخر فى عهد أورليان إلا أنه هزمهم ولـكن لم تـكن هزيمة كاملة، فعلى الفور كون جيشا جديداً قويا وهزم الألمـان هزيمة ساحقة عند نهر ميتادروس ، واستطاع إيقاف هؤلاء البربر بعد مجهود شاق وصل إلى الذروة وقد أدى وجود هـذا الجيش الرومانى الجديد المدعم إلى تأمين الأمبراطورية لمدة قرن آخر تقريباً .

انشاء القسطنطينية

خلال القرن الرابع وفى عهد قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٧) حدث تطوران هامان ، أولهما عندما نودى به أمبراطوراً فى يورك وقد تحتم عليه أن يهزم أولا جميع منافسيه

---

(٦) حاكم بالميرا (تدمر)

السياسيين قبل أن يحصل على عرش روما ، ويقال أنه فى أحد أيام عام ٣١٢ وبعد الظهر أثناء تقدمه نحو إيطاليا وفى مكان قريب من كولمار رأى فى السماء صليبا لامعاً وظهر فوق الصليب هذه الكلمات « من هنا إبدأ الفتح » ويقال أن المسيح ظهر له فى الحلم أثناء تلك الليلة وقال له أن يتخذ من العلامة التى رآها شعاراً له ، وبهذا الإلهام وباستخدامه أسلوب الألتفاف حول جناح خصمه ماكسنتيوس استطاع تحقيق نصراً ساحقاً ، اتخذ بعده تلك العلامة التى رأها شعاراً ووضعها على خوذته الشخصية وعلى دروع جنوده ، ونادى بعدها بإباحة المسيحية ، وفى نهاية القرن (٣٧٩ ـــ ٣٩٥) جعل ثيودوسيوس الديانة المسيحية هى الديانة الرسمية للأمبراطورية ، وقد أدى موضوع الديانة المسيحية إلى إزدياد حدة العداء بين البربر وشعب الأمبراطورية الرومانية ، لأن جميع البربر كانوا تقريبا من المسيحيين الآريوسيين المنشقين[١] .

أما التطور الثانى الذى حدث فى ذلك الوقت هو إنشاء العاصمة الثانية للامبراطورية على يد قسطنطين وأطلق عليها إسم القسطنطينية أو بيزنتيوم وكانت ذات موقع استراتيجى هام وخاصة فى مقاومة الغزاة البربر . ومن ذلك الوقت حتى عام ٤٧٦ كان يوجد عادة امبراطوريان ولكن فيما بعد أصبحت القسطنطينية العاصمة الوحيدة للامبراطورية الرومانية .

وإذا بحثنا سويا فى أسباب سقوط الأمبراطورية الرومانية لوجدنا أنها ترجع لأسباب كثيرة منها ضعفها الاقتصادى ودمار المدن وهبوط تعدادها السكانى وتشبعها بالثقافة البربرية مع إنشاء عاصمة ثانية للامبراطورية فساعد كل هذا على زوال روما القديمة ويمكن القول بأنه أدى فى النهاية إلى الضعف العسكرى ، ولكن الأسباب الرئيسية فى إنهيار روما عسكريا تكمن فى هزيمة الأمبراطور فالنس أمام القوط[٢] عند أدريانوبل (أدرنة) عام ٣٧٨ . وقد تعرضت روما للنهب مرتين أولهما على يد ألريك[٣] عام ٤١٠ ، وثانيهما على يد الواندال[٤]

---

(١) كانوا من أتباع آريوس وهو أسقف من انطاكية وتوفى عام ٣٣٦ .

(٢) ينحدر القوط من الجنس الألمانى

(٣) ألريك أحد قادة القوط الغربيين

(٤) الواندال قبيلة جرمانية واجتاحت فرنسا وأسبانيا وشمال أفريقيا فى القرن الخامس الميلادى كما أحتلت روما ونهبتها عام ٤٥٥ « المعرب »

بقيادة جيسريك عام ٤٥٥ أو فى عام ٤٧٦ قام القــائد أودكر بعزل روميلوس أغسطولوس آخر أباطرة روما .

وقد أجتاحت الشعوب البربرية(١) المقاطعات الرومانية ودفعها إلى ذلك سببين الأول الطمع فى الغنى والحضارة الرومانية وثانيا ضغط الهون(٢) عليهم ، وبذلك أصبح واضحا أن القوة الرومانية قد قربت نهايتها فى الغرب

سيف أرثر

أما مصير بريطانيا فقد تميز بما حدث للمقاطعات النائية الرومانية فى هذا العصر ، فبعد الهدوء الذى خيم عليها أبان عهدسيفيروس ما بين ٢٠٨ — ٢١١ ، وظلت فى سلام لم يعكره أى غازى لمدة مائه وخمسون عاما إلا أنها كانت من المقاطعات الثائرة المتمردة خلال القرن الثالث ، ولـكن قبل عام ٣٥٠ أصبح كل من البكت فى الشمال والاسكتلنديون فى الشمال الغربى مصدر للازعاج ولـكن فى عام ٣٦٨ أستطاع ثيودوسيوس أخماد هذا الأزعاج وتقدم حتى أقصى الشمال عند سورهادريان ، فى ذلك الوقت ابتدأت غارات السكسون على بريطانيا عبر بحر الشمال وكانت فى أول الأمر مجرد إغارات للسلب والنهب ولـكنها وتحولت سريعاً إلى عمليات غزو بهدف الإستيطان ولـكن القوات الرومانية الموجودة فى بريطانية قاومتهم مقاومة عنيفة ولـكن بدون جدوى . وفى الفترة ما بين عام ٤٠٦ ، ٤٠٧ عبرحشد هائل من البربر نهر الراين إلى داخل الغال وبذلك عزلت بريطانيا من الاتصال بالبحر المتوســط فأدى هذا تخلى روما عنها مع إيقاف إرســال أى مسئولين عسكريين أو قوات إليها .

ولو ألقينا نظرة على شعوب البربر لوجدنا أن مصدرها واحد للأسلحة الحديدية ؛ فـكانت هذه الأسلحة تأتى من على ضفاف الراين والدانوب ، فـكانت السيوف مزركشة برسومات كثيرة متشابه على شـكل طيور مفترسة أو ثعابين طويلة ملتفة حول نفسها أو حيوانات مفترسة تزود عن نفسها الأذى . وكان السيف طويلا ويتدلى من ثوب المقاتل

---

(١) يقصد هنا الواندال والقوط.

(٢) الهون هم شعب مغولى فى ترحال دائم سيطر على جزء كبير من أوروبا الشرقية والوسطى بقيادة قائدهم أتيلا . « المعرب »

ويعتبر سلاحه الرئيسى ، ولكن لندرة المعادن كان يحمل هذه السيوف القادة فقط . أما باقى الأسلحة فكانت تنتقل من جيل لآخر ، ومن أشهر هذه الأسلحة سيف آرثر وقد أطلق عليه «أكسكاليبور» ، وكان يستخدم أيضا السيف ذو الحد العريض والرماح القوية الصلبة لدرجة أن الضحايا كانت تبقى معلقة على الجدران أو الأشجار بعد اختراق الرماح أجسادهم .

وكان هناك سلاح شائع وهو الساكس عبارة عن سيف قصير عريض مقوس بدرجة طفيفة وذو حافة واحدة مسننة ويعتبر السلاح التالى للسيف . وقد حاربت شعوب الشمال بالحراب التى وصل طولها إلى ١١ قدما ، أما دروع القادة فكانت عادة غاية فى الزخرفة ، أما الخوذات فلم تكن لها أى قيمة أكثر من مجرد غطاء للرأس وتصنع من الشرائح المعدنية ، وكان بعض هذه الخوذات مزوداً بواق للرقبة والبعض الآخر مزوداً بقناع متحرك فى مقدمتها ، كما كان البعض منها محلى برسوم لرؤوس الحيوانات الضارية ، وكان الفرنجة لديهم سلاح آخر وهو بلطة القذف القصيرة الخفيفة . وكانت هذه الأسلحة لا يحملها كل القوات ، فمعظم الجنود يخوضون القتال وعلى رؤوسهم واق من الجلد ودرع مستدير من الخشب أو الأملود(١) المغطى بالجلد المدبوغ ، وكان سلاحهم الرمح أو الهراوة .

وكان معظم شعوب البربر تفضل القتال من فوق ظهور الخيل ، أما الفرنجة فكانوا يقاتلون فى حشود غير منتظمة من المشاة هزيلة التسليح ، أما ركوب الخيل فكان قاصرا على حرس الملك فقط .

والجيش يتشكل من وحدات كل وحدة بها مائة جندى ، ووحدات أخرى بها ألف جندى والوحدات تكون العشائر والجماعات ، وكان تشكيلهم للمعركة الشائع هو تشكيل حرف ٧ وكانوا يقيمون تحصينات دائرية على التلال ، بينما يقيمون فى السهول تحصينات من العربات المقفلة ، ويتمتعون بلياقة جسمانية ممتازة تفوق جميع شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وقد كتب عنهم سيدو نيوس بأن الرجل منهم يبلغ طوله سبعة أقدام بينما يدهنون شعورهم بسائل رائحته كريهة ويأكلون كميات كبيرة ويتحدثون بطريقة جوهرية ، وبعض هذه الشعوب

(١) الأملود عبارة عن أغصان صغيرة مرنة

كانوا ملاحين مهرة ، وقد أرعبت سفن السكسون ذات الأشرعة الجلدية الشواطىء البريطـــانية وقد صنع القبائل المجاورة للبحر زوارق من تجاويف الأشجار وتحمل ثلاثون رجلا .

وقد تطورت إلى سفن شراعية كبيرة مصنوعة من ألواح خشبية مثل الفايكنج[١] وتحمل أكثر من مائة رجل .

اعظم الشعوب فى فن الحرب (أنظر اللوحة رقم ١١)

لقد وصل الواندال إلى أبعد ما وصل إليه باقى الجماعات ، ففى بداية القرن الأول تحركوا من البلطيق خلال الغال وأسبانيا ثم إلى شمال أفريقيا مع عام ٤٢٩ مسيطرين بأسطولهم على غرب البحر الأبيض المتوسط .

وفى عام ٤٥٥ قاموا بالإبحار تحت قيادة جيسريك حيث نهبوا روما ، وقد فقد الرومان فى ذلك الوقت السيطرة على البحر الأبيض المتوسط. كما أن الوقت من ناحية أخرى كان قد فات على صدور قانون فى القسطنطينية يحظر على شعوب البربر تعلم بناء السفن وكان عقوبتها الاعدام .

وفى عام ٢٥٣ — ٢٦٧ قام القوط بغاراتهم عن طريق البحر على كل من اليونان وآسيا الصغرى وكانوا أول من وجهوا الضربة إلى قلب الامبراطورية الرومانية فكانوا أعظم الشعوب فى فن الحرب .

وفى عام ٣٧٦ وتحت ضغط شديد من الهون توسل القوط الغربيون إلى الامبراطور فالينس للسماح لهم بالإستيطان داخل الامبراطورية الرومانية ، وأذن لهم الامبراطور بعبور الدانوب من داشيا والإقامة فى موسيا السفلى[١] بشرط نزع سلاحهم ، إلا أن القوط الشرقيون تقدموا بنفس الطلب ولكن الامبراطور رفض هذا الطلب خوفاً من كثرة عدد البربر فى الامبراطورية إلا أنهم قاموا بعبور الدانوب عنوة وهم مدججون بالسلاح، فما كان من القوط الغربيون أن انضموا إليهم. وفى عام ٣٧٨ اصطدم فالينس مع القوط عند أدريانوبل وكانت

(٢) الفايكنج هم قراصنة من أسكندنافيا

(١) موسيا السفلى بلغاريا حاليا

معركة رهيبة ، فقدفاجأ الجيش الرومانى القوط وهم معسكرين داخل نطاق كبير مسور بالعربات .

وبالرغم من التغييرات التى حدثت فى شخصية الجيش الرومانى وبالرغم من كل التجارب السابقة فى المعارك مع البربر والتى كان يجب أن يتعلم منها الجيش الرومانى إلا أن فالينس قاد قواته بنفس الطريقة الكلاسيكية الرومانية ، فقام بحشد فرق المشاة فى الوسط ، ووضع القوات الإحتياطية الراكبة الخليفة على الأجناب ، وقد وصل إلى علمه بأن جميع قوات العدو موجودة داخل ذلك المعسكر ولذلك قام بمهاجمتها ولكنه لم يعلم بأن فرسان القوط كانوا يطوفون بعيدا عن المعسكر بحثاً عن علف للخيول ، ومع بداية المعركة استدعوا على عجل وقاموا بمهاجمة الجناح الأيسر للرومان ، وقدوصف هجوم الفرسان بأنه كان كالصاعقة المنقضة من فوق قمم الجبال وقد سحق كل ما أعترض طريقهم، وقد تفرقت فرسان الرومان وأكمل القوط اندفاعهم لسحق المشاة التى هرب جناحها الايسر ونجحوا فى سحق الفرق الموجودة فى الوسط[1] المندفعة من اليسار بمشاتهم المندفعة من الأمام وبذلك أصبحت الفرق الرومانية تواجه قدرها بعد أن أصبحت عاجزة عن الحركة .

وهذه المعركة ذات دلالة كبيرة تتمثل فى النصر الذى حققته الفرسان الثقيلة على المشاة وتلقى الضوء على المستقبل المظلم الذى ينتظر الجيش الرومانى ، وعلى كل فكان فرسان القوط أسبق من غيرهم فى عبور عتبه حروب العصور الوسطى ، ومن ذلك الوقت وما بعده حتى ظهور الرماة الإنجليز والرماحين السويسريين الذين تحدوا القوط فى القرن الرابع عشر ، فقد ظلت الفرسان الثقيلة طوال هذه المدة صاحبة المرتبة العليا فى أوروبا .

وعلى كل فيرجع بداية فن حروب العصور الوسطى إلى البربر أكثر منه إلى الرومان، فالفارس المثقل بالدروع ويحمل حربته ومن وراءه اتباعه فقد نبع هذا من البربر،وقد اشتقت المظاهر المميزة لهذه الحرب (من الفروسية والشعارات) من البربر أيضاً ، بينما كان كل هذا يتعارض مع تقاليد مشاة الرومان .

---

(١) أجبرت فرسان الرومان فى الجناح الأيمن على الانضمام على المشاه الموجوده فى الوسط فأصبحت قوة واحدة . « المعرب »

وعلى كل كان هناك سببان رئيسان وراء تطور الفروسية القوطية ووصولها إلى هذه القوة والعظمة ، أولهما أنه خلال هجومهم الطويل فى السهول الجنوبية لروسيا ووسط أوروبا أكتسبوا خبرة كبيرة فأصبحوا فرساناً ممتازين ، وثانيهما أنه يوجد بحوزتهم الركاب الذى يستطيع الفارس أن يحتفظ بتوازنه على ظهر حصانه وهو جالس على السرج الذى يتحمل ثقل دروعه والصدمات عند استعماله لحربته . ومن المحتمل أن يكون أصل مصدر الركاب هو الشرق ، فقد ظهر مع بداية القرن الرابع قبل الميلاد ، ففى بعض صور النحت البوذية للقرن الثانى قبل الميلاد فرسان هذا العصر وهم يستخدمون عقداً من الحبال على شكل الركاب . وقد دخل الركاب إلى الغرب مع الجياد القوية القادمة من آسيا فى القرن الأول قبل الميلاد مع الأسكوذيون وقد حل القوط محل الأسكوذيون ومزجوا بين الأسلوب العسكرى الأسكوذى وما يتمتعون به من طاقة ، فأصبحوا يتصفون بالضراوة والكفاءة والتى أتبعوها فى هجومهم على الأمبراطورية الرومانية .

وقد طور البيزنطيون أسلوب قتالهم بعد معركة أدريا نوبل وأصبح على نمط أسلوب قتال القوط مما أدى أن الأباطرة اضطروا إلى نبذ أسلوب قتالهم[١] وحل فرق المشاة .

ولم يستطع الرومان مقاومة القوط بالقوة فاضطروا السماح لهم بالاستيطان بشروط مناسبة مع دفعهم للقتال ضد الشعوب البربرية الأخرى .

ولكن فى عام ٣٩٧ نجحت الجيوش الغربية الرومانية تحت قيادة «ستيليكو[٢]» من دحر القوط الغربيين تحت قيادة ألريك وطردهم من اليونان ، إلا أن ألريك أتجه نحو إيطاليا ولكن ستيليكو استطاع الإنتصار على ألريك بجيش عماده من المشاه عام ٤٠٢ عند بولينيتا فى شمال إيطاليا ، وبعدها بأربعة سنوات حاصر عشرون ألفاً من رجال اللومباردى فى فلورنسا وأجبرهم على الاستسلام . وتحت ضغط الهون زحفت جماعات من قبائل السوفى والواندال والهيرول وعبروا جبال الألب إلى المناطق الجنوبية للأمبراطورية الرومانية ، وبكل حماقة

---

(١) أسلوب القتال الذى يعتمد على فرق المشاة

(٢) كان قائد وندالى على مستوى عال من المقدرة والكفاءة «المعرب»

قام الإمبراطور هونوريوس بقتل ستيليكو وذبح عدد كبير من القوط فى الجيش الرومانى مما أدى إلى تمرد ثلاثون ألفاً من المرتزقة القوط .

سوط الله (أنظر اللوحة رقم ١١)

فى عام ٤١٠ سقطت روما فى يد ألريك ونهبوا المدينة إلا أنهم احترموا المقدسات الدينية[١] ، ولكن بعد عام ٤١٠ خيم الهدوء المؤقت للحروب وأقام الواندال فى أفريقيا والبورجند فى بورجندى والفرنجة فى شمال فرنسا ، أما القوط الغربيون بعد سلبهم لإيطاليا أقاموا علاقات مع الإمبراطور ثم واصلوا زحفهم وكونوا مملكة فى أسبانيا وجنوب غرب الغال ، وبدا أن أوروبا أخذت تلتقط أنفاسها . ولكن فى منتصف القرن الخامس حدث أفظع غزو فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، فقد كون الهون جيشاً جراراً من الفرسان تحت قيادة خان عظيم وهو أتيلا[٢] وواصلوا غزوهم لعدة قرون واتجهوا نحو الغرب[٣] وقد خافهم جميع شعوب الغرب سواء أكانوا رومانيين أو البربر ، كما شعروا نحوهم باشمئزاز وبغض عميقين . وإذا ألقينا نظرة على أسباب غزو البربر والجرمان للإمبراطورية الرومانية لوجدنا أن السبب هو الاستمتاع بها وخيراتها ، أما السبب الرئيسى لغارات الهون فكانت للتدمير فقط .

وكان الهون فى الماضى غير منظمين ويحاربون فى صفوف البربر ،وكان هناك أعداد كبيرة منهم فى الجيش القوطى أثناء معركة أدريا نوبل ، كما كان الهون يشكلون أحياناً الاحتياطيات فى الجيش الرومانى نفسه . وقد أدى التزايد السكانى بينهم إلى دفعهم للقتال فنظموا جيشاً وهاجموا أوروبا .

وقد وصف أميانوس مارسيلينوس[٤] انطباعاته عن الهون قائلا : — « كانت دولة

---

(١) لقد أحترموا المقدسات الدينية لأنهم يدينون بالدين المسيحى

(٢) كان يطلق على أتيلا « سوط الله »

(٣) فيما بين ٢٠٧ ق.م و٣٩ ب.م حاول المغول غزو الصين ولكن الصينيين أجبروهم على الأتجاه غربا

(٤) أحد الجنود الذين عاصروا هذه الحروب «المعرب»

الهون تفوق كل دول البربر فى وحشيتها ، فالجميع يتميزون بسيقانهم الملتصقة وأعناقهم القصيرة وملامحهم القبيحة التى تنذر بالشر ، أما إذا نظرت إلى ظهورهم المحدبة فستعتقد لأول وهلة أنك أمام أحدى الضوارى التى تمشى على قدمين وكانوا مدربين منذ طفولتهم على تحمل أقصى درجات البرد والجوع والعطش ، وملتصقين باستمرار بخيولهم التى تتميز بالجرأة وقوة الاحتمال وبشكلها الكئيب . وكل رجال هذه الدولة يعيشون ليل نهار على ظهور خيولهم حيث يتناولون طعامهم وشرابهم فوق سروجهم وعندما يأتى الليل يميلون إلى الأمام فوق عنق خيولهم ويذهبون فى سبات عميق .

وفى بعض الأحيان يقاتلون بأسلوب منظم ويملئون الجو بصيحات مرعبة ، وكانوا يستخدمون المفاجأة وخفة الحركة فى تحركاتهم ، فيتفرقون ويتجمعون مرة أخرى بسرعة فائقة فى مجموعات مرنة ، ويجب أن نعترف أنهم كانوا من أكفأ وأسرع أنواع المحاربين فى ذلك الوقت » .

لم يكن جيش الهون بتلك الضخامة العددية التى كانت تبدو عليه ولكن وحشيتهم ودمامتهم جعلتهم أشبه بالشياطين أو المخلوقات الدنيا من البشر . وكانت هذه الصفات تعتبر سلاحاً نفسياً رهيباً أثناء قتالهم . أما الصفة التى تميزوا بها فهى فى مقدرتهم الفائقة فى الحركة، سواء فى حركتهم كدولة محاربة رحالة مهاجرة وفى حرب متواصلة أو كقوة تكتيكية رهيبة وعلى كل فهذه القدرات جعلتهم قوماً مدمرين ، وساعدهم فى ذلك خيولهم التى تعدو بسرعة ٢٠ ميلا فى الساعة فكانت تقطع مائة ميل فى اليوم الواحد .

وكان فرسان الهون ذو مقدرة فائقة فى الهجوم والانسحاب علاوة على سهامهم المنقضة وقد أثبتوا فاعلية كبيرة فى مواجهة فرسان القوط وكان سلاحهم الرئيسى القوس[1] وكانوا من أبرع الرماة . وقد استخدموا السيوف الحديدية[2] أيضاً .

---

(١) كان الفارس يحمل القوس المركب القصير القوى ويصنع من القرون القوية والقطع القصيرة المجدولة من الخشب المشدود إلى بعضه على شكل مزدوج .

(٢) يحتمل أن القوط سلبوها أو حصلوا عليها بطريق المقايضة من الشعوب الأوروبية ، فلم يكن لديهم الفرصة للقيام بأى صناعات معدنية . « المعرب »

وقد استخدموا أسوباً جديراً بالملاحظة فى القتال المتلاحم وذلك بقيام أحد رجالهم بارباك مقاتل العدو بواسطة الوهق[1] أو بواسطة شبكة ، وفى نفس الوقت يتفادى ضربات سيف مقاتل آخر من العدو ، وعلى كل كانوا لايحبون أستخدام الدروع ، والقليل جدا منهم من تحملها .

اتيلا وعروسه الجديدة

فى عام ٤٣٣ أصبح آتيلا حاكما لأمبراطورية الهون وسرعان ما فرض نفوذه على القوط الشرقيين والسلاف الموجودين بين الدون والدانوب وأيضاً على قبائل الجرمان فى الدانوب وفى أقصى الغرب . وأستمر آتيلا ينهب شعب الأمبراطورية الرومانية فكان يحصل على الجزيات والرشاوى من الجماعات التى تستوطن أطراف الأمبراطورية كما كان يؤجر الهون أنفسهم كمرتزقة فى الجيوش الأخرى ، وفيما بين ٤٤٠ — ٤٤٧ قام بغزو البلقان ولكن قوبل بمقاومة عنيفة فتحول إلى أقصى الغرب . وفى عام ٤٥١ عبر الهون الرين الأدنى على ظهر أطواف وتقدموا نحو أورليانز ، ولكن القوط الغربيين أنضموا إلى الرومان تحت قيادة إيتيوس وأستطاعوا صد الهون[2] بعد معركة دارت على سهل مورياك (شالون) ،ولايوجد سجلات دقيقة عن تلك المعركة فيما عدا ما كتب عنها : — « لقد كانت معركة وحشية وعنيدةومعقدة وضخمة. »وعلى كل لم يواصل إيتيوس أنتصاره فقد خشى أزدياد قوة القوط الغربيين بعد القضاء على الهون ، ونتج عن ذلك أن آتيلا غزا إيطاليا فى العام التالى ولكن أوقفته فى هذه المرة المجاعة والمرض التعزيزات التى وصلت للرومان من الشرق ودبلوماسية الأب ليو الأول ٠وفى عام ٤٥٣ أقترن آتيلا بزوجة جديدة وفى ليلة عرسه مات نتيجة أنفجار أحدى أوعيته الدموية، وقد علق شوكير على ذلك قائلا : « أنظروا ... آتيلا ، الفاتح العظيم ، لقد مات أثناء نومه مصحوبا بالخزى والعار . لقد نزف من أنفه نزيف الكسول ، ويجب على القائد أن يحيي متزنا ووقوراً » .

---

(١) الوهق عبارة عن حبل فى نهايته أنشوطة .

(٢) لم يكن الهون وحدهم بل كانوا معهم اللمبورد والهيرول والقوط الشرقيين « المعرب »

وبالرغم من الخاتمة المثيرة لغزوات الهون إلا أنها أتخذت شكلا دراميا ، لأن الحشد الكبير لقوات الهون هز دائما القوات الأوروبية التى كانت تجمع على عجل لقتالهم، فالجيوش التى تصدت للهون فى البلقان والتى هزمت كانت كلها خليط من قوات مختلفة . وقد قاتل آتيلا فى سهل مورياك فى أرض من أختياره وكانت ملائمة لأسلوب القتال التى ينتهجه الهون وعلى كل فكان آتيلا شخصية فريدة وبارزة وقد مكنه هذا من توحيد مثل هذا الشعب وقيادته طوال هذه المدة الطويلة ، وواضح أنه كان قائداً عسكرياً ممتازاً لهذا الشعب الأسيوى ولكن عندما واجهته قوات منظمة فشل أسلوب قيادته لذلك لا يمكن أن يعد من القادة العظام مثل جنكيز خان .

ولا تعد هزيمة الهون بأنها أنقذت روما ، لأنه فى عام ٤٧٦ قام أودوكر[١] بعزل رموليوس أغسطولوس وبذلك أنهى الأمبراطورية فى الغرب ، أما أودوكر فقد عزل هو الآخر بواسطة ثيودوريك[٢] . وعندما مات ثيودوريك قام جوستينيان[٣] ٥٢٧ — ٥٦٥ بمحاولة لأستعادة الأمبراطورية الرومانية فى الغرب وسعى وراء هذا الهدف الخيالى فأهمل حدود الدانوب والحدود الشرقية كما أن المقاطعات الشرقية[٤] التى أنهكتها الضرائب تعرضت لحرب لمدة عشرون عاماً . وقد أنتجت هذه الحروب قائداً عظيما بارزاً هو بليزاريوس.

النظام الحربي

ظل الجيش البيزنطى محتفظاً بمقدرته لفترة من الزمن فى مواجهة حرب القوط ،وكان يتكون معظمه من المرتزقة ومن مختلف القبائل البربرية ومعظمه من الفرسان أما المشاة الثقيلة فكانت قليلة . إذا عدنا سويا إلى القائد بليزاريوس لوجدنا أنه تخرج من المدرسة الحربية للأمبراطورية الرومانية وتعين فى الحرس الأمبراطورى ، وفى عام ٥٢٠ طاب منه تدريب قوة من الفرسان الثقيلة المسلحة بالقوس والرمح حتى تصبح قوات مناوشة وأيضاً قوات صدمة ،فأضاف على تسليحهم

(١) أودوكر : قائد هيرولى لأحد الجيوش الرومانية وكانت تتشكل بالكامل من البربر .
(٢) ثيودوريك قائد من القوط الشرقيين وقد كون مملكة متمدينة فى رافينا
(٣) أمبراطور القسطنطينية
(٤) لقد تحولت الجيوش منها إلى الغرب وأفريقيا وأسبانيا وأيطاليا « المعرب »

السهام ذات الريش والتي تقذف باليد من مسافة قريبة ، وقد علمهم أستخدام السيوف العريضة الثقيلة عندما يصبح أستعمال الرمح دون جدوى ، وقد أدى هذا أن الأمر أصبح يحتاج إلى جندي قادراً وكفأ ليستخدم هذه الأسلحة الأربعة وفي نفس الوقت يجب أن يتحكم في حصانه أثناء القتال وهذا تطلب منه مجهوداً كبيراً ليحصل على الجندي الملائم لهذه القوة الجديدة . وقد قام بتدريب رجاله على تثبيت أنفسهم على السرج بواسطة الركاب ويتحكمون في حركة الحصان بواسطة تحريك الركاب فقط لأن استعمال القوس يتطلب أستخدام كلتا اليدين ، وعلى كل ساعده على ذلك أن السرج في ذلك الوقت كان عريضاً ومريحاً . وكان الفرسان يحملون دروعاً تعلق باليد اليسرى ويرتدون دروعاً على شكل قميص بدون أكمام ويمتد حتى الأفخاذ ويرتدون أحذية طويلة مصنوعة من جلود الحيوانات والقوس يتدلى من فوق كتف الفارس في حالة عدم استعماله بينما تحفظ السهام داخل جراب معلق مباشرة وراء السيف العريض وعلى الفخذ الأيسر ، وتحفظ السهام الاثنى عشر المزودة بالريش داخل جراب مشدود إلى الدرع ، أما الرمح فيحفظ داخل ما يشبه الدلو المصنوع من الجلد وعلى الجانب الأيمن للمقاتل . وقد أستخدم نفس أسلوب الهون في الرماية بينما أستخدم أسلوب القوط في القتال بالرمح . وأخذ يدرب الفرسان عمليا حتى تزداد مهارتهم في التسديد والاصابة وكان يتم ذلك على أهداف على شكل دمى معلقة في عوارض خشبية ، وكان على الفارس أن يشد قوسه عندما يقترب من الهدف ، ثم يطلق ثلاثة سهام متتالية على هذا الهدف المتأرجح ثم ينهى هجومه بالرمح أو بالاثنى عشر سهماً ذات الريش[1] وكان أجر الفارس ورتبته ومؤنه تمنح طبقاً للكفاءة في التدريب .

وقد تعلم بليزاريوس مهنة القتال عن طريق الحرب التي دارت في الدانوب والشرق ومثال لذلك أنه استنبط أسلوب تكتيكي جديد وأستخدمه ضد رماة الهون الراكبين في بلغاريا ، فكانت المشكلة كيف يشتبك مع الهون عن قرب ؟ وقد نجح بليزاريوس في أغرائهم بواسطة « طعم حي »[2] فيندفع الهون نحوهم في حماس حتى يصلوا إلى أرض من أختياره فيقطع عليهم خط الرجعة .

---

(١) كان يطلق على هذه السهام « السهام ذات الأجنحة »

(٢) الطعم الحي عبارة عن مجموعة من الفرسان يركبون جياداً سريعة جداً ، ويوضعون في طريق تقدم الهون ليجذبون القوات لمهاجمتهم . « المعرب »

وقد أستطاع بليزاريوس التغلب على العربات التى يستخدمها الهون كمتاريس بأن يشعل رجاله النار فيها بأطلاق السهام المشتعلة عليها وكان يطلق السهم فى نفس الاتجاه التى تهب فيه الريح نحو هذه العربات .

حوت البوسفور

وقد ظل بليزاريوس يعمل مديراً للتدريب العسكرى لمدة أربعة سنوات ، وقد قضى هذه المدة فى الطوف بالحاميات على الحدود الشرقية لتنظيم وتنسيق أساليب تدريبها . وفى العمليات التى دارت مع الفرس كان النجاح حليفه وبطريقة بارزة ، أما الفشل الوحيد الذى لحق ببليزاريوس أنه حاول قتل حوت هائل كان يطلق عليه « بروفيرى » وكان يثير الرعب فى البوسفور وكان سبب هذا الفشل أن بحارته فقدوا أعصابهم ففشلوا فى تصويب المنجانيق بالطريقة الصحيحة . وفى عام ٥٣٢ أسندت القيادة لبليزاريوس ليقاتل الواندال وخرج من بيزنتيوم[1] على رأس جيش جرار يقدر بحوالى عشرة آلاف من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان وكان معظمهم من المرتزقة ومن جنسيات متعددة ويمثلون الفلاحين وتباع القادة ، ويعتبر هذا الجيش أول جيش أقطاعى . وكانت المشاة ذات كفاءة كبيرة ونوعية ممتازة ومن مرتفعات قلقيلية وقد دربهم بليزاريوس، أما الفرسان فكان من بينهم ستمائة من الهون وأربعمائة من الهيرول ، كما كان هناك وحدة مشكلة من حوالى ألف وخمسمائة من الفرسان المدرعين كحرس ملكى خلف بليزاريوس ،وكان رئيس أركانه يدعى سليمان من أرمينيا وكان من ضمن أفراد قيادته مؤرخ يدعى هوبروكبس وهو مؤرخ عهد جوستينيان . وقد أعتاد بليزاريوس فى جميع حملاته أصطحاب زوجته أنطوانيت وكانت أمرأة تتميز بالجرأة والشجاعة .

وقد أبحر الجيش عن طريق أيطاليا وصقليه بأسطول مكون من ٥٠٠ سفينة نقل مختلفة الأحجام وفى حراسة أسطول صغير مكون من ٩٢ قارباشراعياً[2] سريعاً . وكان بليزاريوس يحب النظام ويقدسه وقد أدى هذا أن فرض نفسه على رجاله ومثال لذلك أنه أعدم أثنين من

---

(١) وهى القسطنطينية

(٢) كان يطلق عليه درمون ويقوم بالتجديف فى كل منه ٢٠ رجلا

الهون قتلا أحد الرجال أثناء حفلة شراب . ولم تقابل عملية الأنزال فى أفريقيا أى مقاومة تذكر ، وتقدم الجيش نحو قرطاجة ، وفى كل ليلة تقيم القوات معسكرا على النمط الرومانى القديم للمبيت فيه ، وعند الميل العاشر قبل قرطاجه ألتقى الرومان بالواندال[1] الذين حشدوا ٨٠٫٠٠٠ من الجنود ، ولكن جيشهم كان أقل خبرة علاوة على أفتقاره للتدريب من جيش بليزاريوس وفى بداية المعركة أصطدم فرسان الرومان مع فرسان الواندال فى وادى ضيق محصور بين جبلين وأستطاع الرومان هزيمة فرسان الواندال هزيمة منكرة وقتلوا قائدهم[2] ، فى نفس الوقت أندفع جيلمر بالواندال فى احدى السهول القريبة لمهاجمة العدو ولكن السيل المنهمر من سهام قوات بليزاريوس أفزع الواندال وشتتهم ولكن قوات الواندال تجمعت ثانية واحتلت جميع مداخل الوديان فى مواقع دفاعية ممتازة ، وأصبح بليزاريوس بالرغم من تفوقه العددى فى موقف صعب للغاية ، ولكن الأمور تغيرت لصالحه عندما علم جيلمر بمصرع شقيقه فتملكه الحزن الشديد ورفض الإستمرار فى المعركة أكثر من ذلك ، وعلى الفور أستغل بليزاريوس هذه الفرصة لصالحه ، وقام بتقسيم قواته إلى قسمين وأرسلهم لاحتلال الهضاب المحيطة بمداخل هذه الوديان . وقام القسمين وفى وقت واحد بإطلاق سهامهم على الواندال ثم أتبعه بهجوم كاسح من الفرسان والمشاة فأستطاع فى النهاية أبادة الواندال . وفى اليوم التالى استسلمت قرطاجة ولكى يجنب بليزاريوس نهب المدينة ، أمر جنوده بعدم دخولها .

النصر الثاوى

وبعد انتهاء الحرب فى أفريقيا اشتعلت مرة أخرى فى إيطاليا ، فقام بليزاريوس بغزو القوط الشرقيين (٥٣٥ — ٥٤٠) بجيش لم يتعدى ٧٫٥٠٠ رجلا وبالرغم من العقبات والمكائد التى كانت موجودة فى البلاط البيزنطى ، وبالرغم من التردد وغيرة الأمبراطور جوستينيان .

---

(١) كان الواندال من الفرسان المهرة ولكن فرسانهم كانت تقاتل بالرمح والسيف فقط بينما كانت رماتهم من المشاة .

(٢) كان قائد الفرسان شقيق الملك جيلمر وقد أصيب باحدى السهام ذات الأجنحة فى جبهته « المعرب »

وكان لهذه الحرب خاتمة مثيرة فقد دافع بليزاريوس عن روما دفاعاً مستميتاً بخمسة آلاف من رجاله دافعوا عن أثنى عشر ميلاً من أسوار المدينة لمدة عام كامل. وفى عام ٥٤٠ إستسلمت رافينا إلا أن الثورة اشتعلت فيها ، وقام بليزاريوس ومعه نارسيس[1] بمحاربة القوط لمدة أربعة عشر عاماً أخرى .

وعندما حل السلام ، كان عبارة عن سلام أنهاك بينما كان النصر خاوياً لأن الدمار والخراب الذى حل بإيطاليا جعلها غير قادرة عن الدفاع حتى عن نفسها ضد اللومبارد وقد قاموا باكتساح شمالها عام ٥٦٥ .

وعلى كل فقد تفانى بليزاريوس بكل قوته وطاقته لخدمة رئيس سياسى[2] من الدرجة الثانية لأنه طلب منه تحقيق هدف استراتيجي وهمى. فنجد أن ماحصل ووصل إليه جوستينيان يعتبر أكثر مما يمكن السيطرة عليه . ويعتبر بليزاريوس مثال الجندى الكلاسيكى الوفى الكفء .

وفى عام ٥٤٠ قام الفرس بنهب أنطاكية ، وقد تم سحب القوات الرومانية من الحدود الشرقية فأدى هذا إلى ضعف الحدود . وعلى العموم فالحصون التي بناها جوستينيان وتقدر بحوالى سبعمائة لتدل على التقدم الكبير فى مجال الهندسة العسكرية .

وفى القرن الخامس أتم البيزنطيون بناء الدفاعات الكبيرة عن القسطنطينية ، وكانت على شكل حزام ثلاثى من الأسوار وخندقين مائيين ، واستطاعت هذه الدفاعات مقاومة الهجمات المتكررة حتى سقطت لأول مرة عام ١٢٠٤ .

وقد ألهمت أسواره مزاغل وأبراج القسطنطينية مهندسوا العصور الوسطى وأثرت تأثيراً كبيراً على تفكيرهم .

وفى النهاية فقد أدى فشل الأسلوب الذى أتبعه جوستينيان فى فتوحاته إلى الأطاحة بالستار الغربى للامبراطورية الرومانية علاوة على ضياع المجد العسكرى والحضارة الرومانية .

(١) نارسيس كان هذا القائد يبلغ من العمر ٨٠ عاما

(٢) يقصد جوستنيان « المعرب »

والآن وقد تبددت آخر الأوهام السياسية لأن الغزو اللومباردى لإيطاليا يعتبر آخر الهجرات البربرية .

ونعود ثانية وننظر إلى أطراف الأمبراطورية الرومانية فنجد أن شمال أفريقيا والقوط الغربيين وأسبانيا أخذوا ينتظرون غزو العرب لهم ، بينما عزز الفرنجة أنفسهم فى فرنسا أما الأنجلوسكسون فقد استقروا فى بريطانيا .وبالفعل نجد أن الحقبة الجديدة لحرب العصور الوسطى والتى تميزت بالفارس المدجج بالسلاح ويسير من خلفه أتباعه ، قد بدأت فعلا من قرنين من الزمان .

الفصل السابع

الحروب فى أوائل العصور الوسطى

ظهور محمد (عليه الصلاة والسلام) (أنظر اللوحة رقم ١٢)

إذا ألقينا نظرة على الأمبراطورية الرومانية لوجدنا أن غرب هذه الأمبراطورية أخذ يتفتت بينما شرقيها أخذ يزدهر وذلك بقيام الدولة البيزنطية التى أخذت تصارع من أجل البقاء مع العرب أولا ثم بعد ذلك مع الأتراك والبلغاريين . وبعد صراع مرير استطاع البيزنطيون تحقيق النصر على العرب ، مما أدى أن غير العرب طريق فتوحاتهم فتوجهوا إلى شمال أفريقيا فاتحين أسبانيا عام ٧١٣ وبعدها بسبع سنوات توغلوا فى جنوب فرنسا . فى ذلك الوقت ظهرت الفرنجة[١] مرة أخرى وبشكل ملحوظ إلا أنه فى القرن الثامن بدأ الفايكنج غاراتهم على بريطانيا وغرب أوروبا من أسكندنافيا ولم يستطع الفرنجة والإنجليز من صد هجماتهم بفاعلية وكفاءة إلا مع حلول القرن العاشر .

وخلال هذه الفترة المضطربة، أنجبت أوروباقادة اكفاء بارعين ساهموا فى حمايتها وسنشير إلى بعضهم خلال دراستنا لهذه الحقبة .

إذا نظرنا إلى الفترة ما بين القرن السابع والحادى عشر والقينا الضوء على الحرب التى نشبت فى أوروبا الغربية لظهر لنا مظهرا مثيراً وجديرا بالملاحظة وهو التألق المستمر فى مضمار الفروسية ، مع ظهور نظام الأقطاع والتبعية[٣] وبالرغم من هذا كانت تو جدمناطق

(١) الفرنجة : موطنهم الأصلى شمال غرب أوروبا ثم نزحوا إلى داخل الغال الرومانى وهم ينتمون إلى القبائل الجرمانية .

(٢) كان فى ذلك الوقت الفارس هو الأساس فى تشكيل القتال وينتمون الى الطبقة النبيلة ويرفعهم الملك إلى رتبة عسكرية خاصة بعد اجتيازهم مرحلة تدريب معينه ويأخذوا على أنفسهم عهدا بالقيام بالأعمال المجيدة .

(٣) نظام التبعية : وهو ان أن يتبع الفلاحين ملاك الأرض اثناء الحرب ويقاتلوا فى صفوفهم .
« المعرب »

عديدة استمرت فى استخدام المشاة كعنصر رئيسى لقواتها . هذه مقدمة سريعة لتذكرنا بهذه الفترة ، وعلينا الآن العودة إلى عام ٦٢٢ ، فى هذا العام هاجر الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) مع أتباعه من مكة إلى المدينة وبدأ فى نشر الدعوة الإسلامية . وقد قاد النبى (عليه الصلاة والسلام) بنفسه ثلاثمائة من أتباعه وهاجم قافلة مكية وقد حقق أول نصر عسكرى للمسلمين . وفى عام ٦٢٨ وبقوة تقدر بألف وأربعمائة من أتباعه استطاع الرسول (عليه الصلاة والسلام) فرض شروطه على مكة وبذلك ضم إلى صفوف دعوته رجلين من أعظم الرجال وقدر لهما أن يكونا من أعظم قادة الفتوحات الإسلامية وهما خالد بن الوليد .. وعمر بن العاص ..

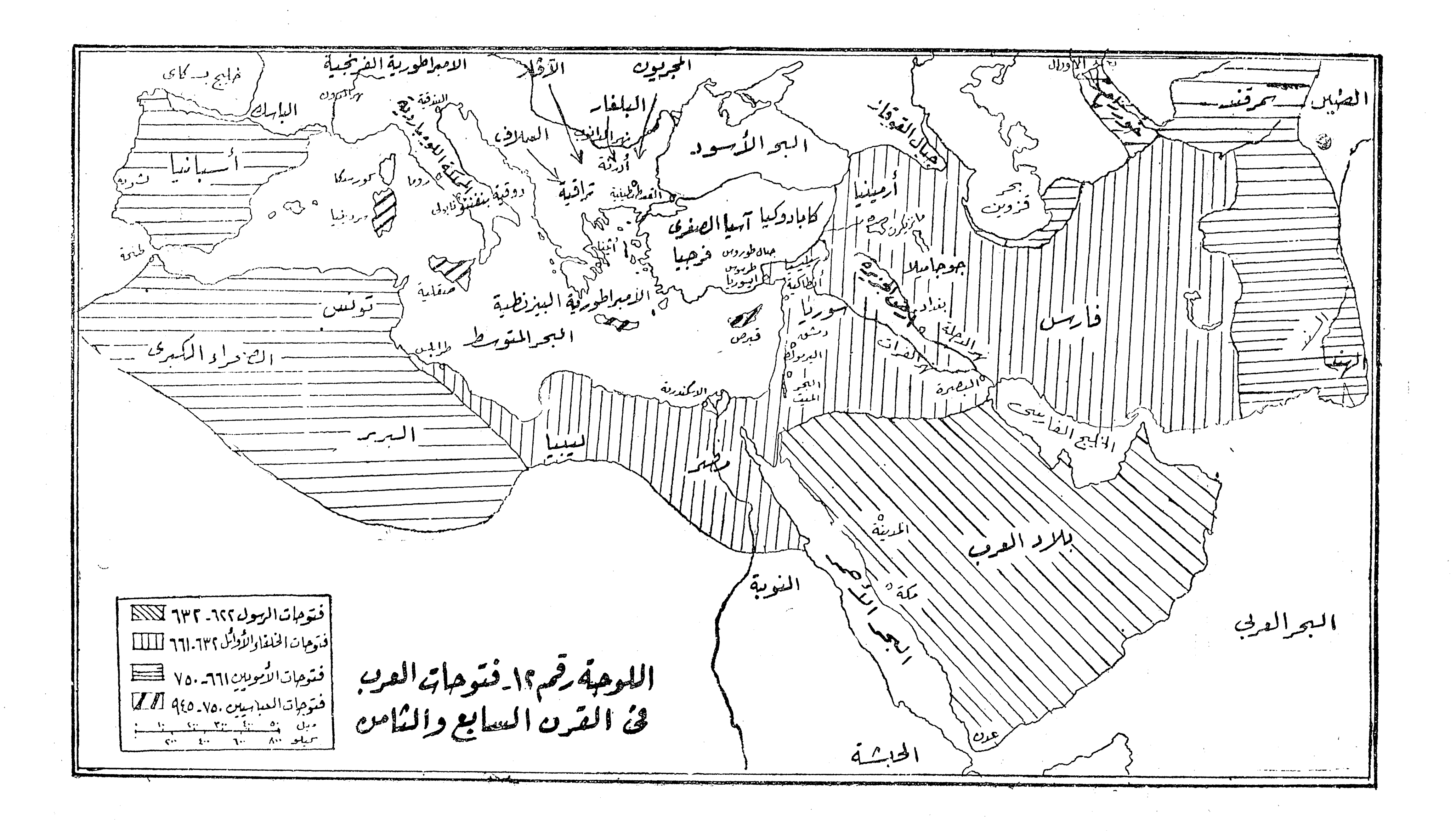
توفى الرسول (عليه الصلاة والسلام) عام ٦٣٢ وبعد اثنى عشر عام أنتزع المسلمون كل من فلسطين وسوريا ومصر من الامبراطورية البيزنطية ، وبعدها تمكنوا من غزو الفرس والأطاحة بهم . وفى غضون مائه سنة أمتدت الإمبراطورية الإسلامية من بحر الأورال إلى أعالى النيل ، ومن تخوم الصين إلى خليج بسكاى . ولم تكن هناك سوى قوة واحدة لديها القدرة على مقاومة المسلمين فى ذلك الوقت وهى الامبراطورية البيزنطية بالرغم من فقدها للجزء الجنوبى الشرقى من امبراطوريتها .

المسلمون قوم لا يقهرون

وفى عام ٦٣٦ حشد الأمبراطور البيزنطى هرقل جيشاً مكوناً من خمسين ألفاً ليقاتل به العرب وكان جيشهم نصف عدد الجيش البيزنطى وبقيادة خالد بن الوليد ، والتقى الجيشان عند اليرموك(١) ، وقد أسفرت المعركة على هزيمة الجيش البيزنطى وتشتتت صفوفه ولاقوا حتفهم على أيدى أهـــل الصحراء وأدى هذا إلى تقلص جبهة البيزنطيين حتى وصلت جبال طوروس ، كما سقطت الأسكندرية(٢) فى قبضة عمرو بن العاص بالرغم من افتقاره لمعدات الحصار والخبرة فى فن الحصار نفسه . أما ليبيا وتونس فقاوموا العرب مدة ٢٥ عاما

(١) منطقة اليرموك من أشد بقاع العالم قيظا وغباراً

(٢) كان يحمى الاسكندرية أسوارا عالية وقوية وحامية مكونة من خمسين ألفا علاوة على الأسطول البيزنطى « المعرب »



اللوحة رقم ١٢ـ فتوحات العرب
في القرن السابع والثامن
فتوحات الرسول ٦٢٢ـ ٦٣٢
فتوحات الخلفاء الأوائل ٦٣٢ـ ٦٦١
فتوحات الأمويين ٦٦١ـ ٧٥٠
فتوحات العباسيين ٧٥٠ـ ٩٤٥
ميل
كيلو
الامبراطورية الفرنجية
الأفار
الجربيون
البلغار
البحر الأسود
أسبانيا
كورسيكا
سردينيا
صقلية
روما
تراقية
القسطنطينية
كابادوكيا آسيا الصغرى
فرجيا
أرمينيا
جبال القوقاز
بحر قزوين
سمرقند
الصين
الامبراطورية البيزنطية
البحر المتوسط
تونس
البربر
ليبيا
مصر
الاسكندرية
قبرص
سوريا
دمشق
البصرة
الفرات
فارس
الخليج الفارسي
بلاد العرب
المدينة
مكة
البحر الأحمر
النوبة
الحبشة
عدن
البحر العربي

ولكنهم فى النهاية اعتنقوا الإسلام ، ومن العجيب أن القوة الرئيسية للجيوش الإسلامية فى فتح أسبانيا بين عامى ٧١٠ — ٧١٣ كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين .

وقد طبق العرب وبذكاء خفة الحركة أثناء فتوحاتهم فكانوا يقاتلون من فوق ظهور الجمال والخيل وفى المناطق الملائمة لذلك مثل الأرضى المفتوحة فى شمال أفريقيا وغرب آسيا ، إلا أن تنظيم قواتهم والأسلوب التكتيكى الذى اتبع فى المعركة كان بدائياً علاوة على افتقارهم للدروع القوية ، فمثلا كانوا يقاتلون عادة فى خط واحد كثيف ومتقارب وأحيانا يقاتلون فى خطين أو ثلاثة ، بينما تشكل كل قبيلة منهم وحدة منفصلة ، وكان أسلوب القتال عندهم أن يتحدى بطلى الجانبين كل منهما الآخر قبل بداية المعركة ، وقد يصل هذا التحدى أن يدخلا سويا فى قتال فردى بين الجيشين ثم يتبع ذلك قتالا عاما للجيشين .

ومن العوامل التى جعلت العرب قوم لا يقهرون شجاعتهم وإقدامهم وحشدهم لقواتهم ، قد وصفهم القائد البيزنطى نفقور فوقاس عندما يتوقعون النصر فهم قوم غاية فى الجسارة يصمدون بثبات فى صفوفهم ، ويقاتلون بإصرار باسل فى وجه أعنف الهجمات ، وعندما يلاحظون أن وحشية عدوهم بدأت تتراخى يحشدون قواتهم ويهجمون باستماتة » .

إذا ألقينا نظرة على مشاتهم فيما عدا الرماة من الأحباش نجدها غير فعالة وهزيلة التسليح ، ولكن قوتهم كانت تكمن فى فرسانهم القوية التى تميزت بالتسليح الخفيف حتى مستهل القرن السابع وبالتالى أصبح لها قدرة فائقة على الحركة ، إلا أنه فى القرون اللاحقة تعلم العرب دروسا كثيرة من أشد أعدائهم صلابة وعناداً وهم البيزنطيون ، فأصبحوا يعتمدون وبدرجة كبيرة على الراكبين من رماة القوس ورماة الرمح وكانوا يرتدون دروعاً على شكل قمصان من السلاسل المعدنية ويضعون على رؤوسهم الخوذات والدروع على الساق لحمايتها ، إلا أن الخيالة العربية لم تصل فى تدريعها إلى مستوى تدريع الخيالة البيزنطية .

الاسلام يحرر الشعوب من العبودية

ومهما يكن من الأمر ، فنجد أن أهم مميزات الجيوش الاسلامية لم تكمن فى المعدات أو التسليح أو التنظيم بل كانت فى الروح المعنوية العالية النابعة من قوة إيمانهم بالدعوة

الإسلامية ، وفى خفة الحركة والتى ترجع إلى مهاراتهم فى سرعة التحرك بالجمال والخيل ، وأيضاً فى قوة احتمالهم وجلدهم نتيجة لحياتهم الصعبة فى الصحراء والتى تعودوا عليها .

وعلى كل فهناك عوامل أخرى شاركت فى نجاح زحفهم غير العادى ، ذلك الزحف الذى كان عبارة عن نجاح تلو النجاح ، فكان العرب يندفعون نحو القتال ويحركهم أقوى دوافع الحرب ، ألا وهو الإيمان والعقيدة ، ومثل هذه النبضات المتلاحقة لم يكن من السهل أن تخبو سريعا .

فالكثير منهم ، وخاصة فى المراحل الأولى للفتوحات الإسلامية ، كانوا يؤمنون إيمانا راسخا بالدعوة الإسلامية متحمسين لها والغيرة عليها ، وأدى هذا إلى إعتناقهم مبدأ صلبا هو الجهاد فى سبيل الله ، وقد تغلغل هذا المبدأ فى قلوب أتباع الرسول « عليه الصلاة والسلام » .

وقد كان العامل الاقتصادى أحدأسباب الحروب التى قام بها العرب إبان القرن السابع، وقد تمثل هذا فى القصة القديمة للازدحام السكانى فى شبه الجزيرة العربية .

وقد ظلت مناطق جنوب الجزيرة العربية لعدة قرون تعانى من الجفاف والقحط مما أدى أن سكان هذه المناطق زحفوا شمالا . ويعتبر الاندفاع العربى فى القرن السابع هو الرابع والأخير ، وكان من أعظم الهجرات السامية . وقد نزح هؤلاء بطبيعة الحال نحو الهلال الخصيب وذلك قبل أن يتدفقوا إلى وديان النيل والفرات ثم ما بعدها .

وقد وصلت الفتوحات الإسلامية مدى لم تصله فى أى عهد سابق ، وذلك ليس فقط لأنهم كانوا أكثر عددا بل أيضا لأنهم كانوا يستقبلوا فى كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية وذلك لما اتسموا به من تسامح . . وإنسانية . . وحضارة ، فزاد إيمان الشعوب بهم ، علاوة على تميزهم فى نفس الوقت بالصلابة والشجاعة فى القتال . وقد أدى كل هذا إلى إعتناق معظم الشعوب التى انتصر عليها العرب الدين الإسلامى ، وقد ظلت جميع المناطق التى فتحها العرب فى القرن السابع حتى يومنا هذا ، ماعدا إسبانيا تحتفظ بالدين الإسلامى وكذلك بالعادات والتقاليد والتراث الإسلامى .

النار الأغريقية

لقد أدرك العرب بعد معركة اليرموك أنه يجب الإستيلاء على القسطنطينية لأن ذلك سوف يوفر لهم أمناً محققاً ويتوجهم بالنصر والنجاح ، وبالرغم من هذا فالتهديد الأول الذى تعرض له العرب بعد ذلك كان من البيزنطيين • وإذا استرجعنا سويا التاريخ لوجدنا أن انتصار العرب المبكر فى الشرق الأدنى يرجع إلى أن الإمبراطورية البيزنطية والفارسية كانتا منهكتين نتيجة للحروب التى دارت بينهما • فنجد أن الإمبراطور البيزنطى هرقل بعد عام ٦٢٣ ، وبعد قيامه بستة حملات استطاع طرد جماعات البربر من حدوده الشمالية والشمالية الشرقية ، وقد انتهز الإمبراطور الفارسى كسرى فرصة هذا الوضع الحرج لغريمه وهاجمه من الشرق إلا أن الإمبراطور هرقل تمكن من دحره • فى ذلك الوقت قام العرب بهجومهم على الإمبراطورية البيزنطية ، وكان الجيش البيزنطى فى حالة من الإنهاك وكما أشرنا سابقا وانسحب الجيش البيزنطى بعد معركة اليرموك إلى خط طوروس ، وهناك أعادوا بناء قواتهم • وفيما بين القرن الثامن والحادى عشر أصبح للبيزنطيين جيشا وبحرية منظمة وعلى درجة عالية من الكفاءة وتعتبر من أعظم ما شهدته أوروبا ومنطقة البحر المتوسط •

وهذا ما اكتشفه العرب عن محاولتهم التوسع فى فتح هذه الإمبراطورية ، ففى عام ٦٦٨ هاجم العرب عدة مناطق من الإمبراطورية البيزنطية ولكنهم لم ينجحوا ، فأعادوا الهجوم بواقع مرة كل سنة بين عام ٦٧٢ ، ٦٧٧ ولكنهم فشلوا أمام الأسطول البيزنطى ، بالرغم من وجود تشابه كبير بين السفن الشراعية الكبيرة البيزنطية والعربية وعلى كل كان هناك نوعان من هـــذه السفن : — سفن صغيرة وتستخدم فى أعمال الاستكشاف ، وسفن كبيرة وتستخدم فى أعمال القتال وكان يطلق عليها « الدرمون » ومن النوع الكبير أيضاً سفن البامفيليه وطولها ١١٠ قدما وعرضها ١٤ قدما ولها دفة مساحتها ٣ أقدام ويقوم بالتجديف فيها مائة رجل موزعين على الجانبين ، وكان الرجال الذين يجدفون فى مقدمة السفينة مسلحين علاوة على جنود الإنزال[1] . وكان يوجد نوع ثالث أكبر من « الدرمون »

---

(١) مشاة البحرية

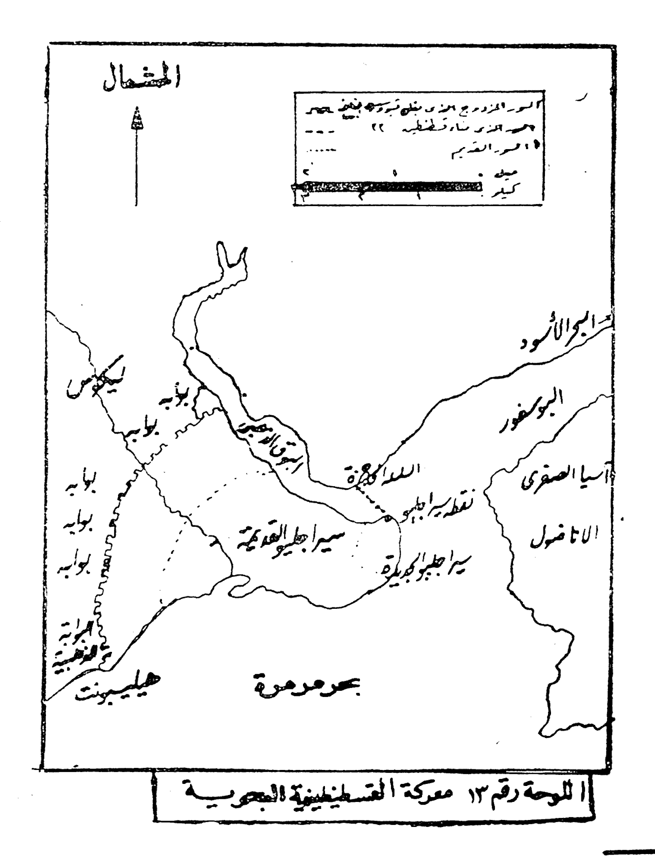
يبلغ طوله ١٤٠ قدما ويقوم بالتجديف فيها ٢٣٠ رجلا . ويرجع تفوق البيزنطيون فى البحرية إلى سببين :

أولهما لأن سفنهم كانت مجهزة أفضل ومتقنة الصنع .

وثانيهما أنهم كان يملكون سلاح « النار الإغريقية[١] » ، وكانوا يطلقون قذائف هذا المخلوط بأقواس مركبة بالسفينة من خلال أنبوبة أو ماسورة أو تقذف فى بواتق بواسطة المنجانيق ، وإذا اختلطت « النار الإغرايقية » بالماء تزداد إشتعالا .

ميناء البوق الذهبى (أنظر اللوحة رقم ١٢ ، ١٣)

استمرار الصراع دائراً بين العرب والبيزنطيين مدة طويلة وكان العرب منتصرين دائماً حتى وصلت الإمبراطورية العربية إلى ذورتها فى عهد الخليفة الوليد (٧٠٥ — ٧١٥) وبات محتما أن الإمبراطورية البيزنطية سيصيبها الأضمحلال ، ولكن عجلة الحظ دارت فى جانب



اللوحة رقم ١٣ معركة القسطنطينية البحرية

(٢) عبارة عن مخلوط محرق غير معروف تركيبه بالضبط ، ولكن من المحتمل أن يدخل فى تركيبه الكبريت والقار والبترول والزنت والزيت ومادة صمغية والجير الحى ، وكان لدى الأغريق شىء كهذا لمدة طويلة ، وربما ترجع هذه المدة إلى الحصار المبكر لديليوم فى عام ٤٢٤ ق . م ولكن فيما يبدو كان هناك سوريا يدعى كاسينوس قام فى عهد قريب بتحسين وتطوير هذا المخلوط. « المعرب »

البيزنطيين عندما حاصر العرب القسطنطينية. ففى الفترة ما بين ٧١٧ — ٧١٨ بعد غزو العرب لآسيا الصغرى ، اضطر الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث إلى التنازل عن العرش لرجل عسكرى محترف هو « ليو الأيسوريانى » الذى قام على الفور بإصلاح وتدعيم تحصينات القسطنطينية الضخمة . وكان من المعروف قبل عصر البارود أن الأسوار والحصون لا يمكن اختراقها بواسطة الهجوم ، وكانت الوسيلة الوحيدة للاستيلاء على المدينة هو حصارها حتى تستسلم فى النهاية جوعاً .

ولكن إذا ألقينا نظرة على القسطنطينية لوجدنا أنها كانت مقامة على نتوء جبلى يمتد إلى داخل البحر وتحيطها المياه من ثلاث جوانب ، ولذلك أصبح سقوط هذه المدينة يتوقف على قوة وقدرة الأسطول المهاجم .

وعلى كل لا نعرف عدد سفن الأسطول العربى بالضبط ، ولكن من المؤكد أن العرب استطاعوا الحصول على عديد من السفن من جميع موانى شرق البحر المتوسط ومن المؤكد أن كان لهم السيادة فى هذه المنطقة والتفوق فى المعركة .

وفى أغسطس عام ٧١٧ هاجم القائد العربى مسلمة القسطنطينية براً بمهاجمة السور المقام على الشاطىء ، إلا أن نيران المنجانيق أجبرته على الأنسحاب ، فقام بمحاصرتها وأصدر أوامره للقائد البحرى سليمان بتقسيم أسطوله إلى قسمين ، قسم يرابط عنــــد أنثيميوس وأيتروفيس على ساحل آسيا الصغرى وذلك لقطع الأمدادات والمواصلات عبر البحر المتوسط إلى القسطنطينية ، بينما يمر القسم الثانى خلال البوسفور ويغلق الممر المائى بين القسطنطينية والبحر الأسود .

فى ذلك الوقت أقام ليو برجين على جانبى المدخل المؤدى إلى ميناء البوق الذهبى ، وعلق بينهما سلسلة حديدية تحت الماء كعائق للسفن ثم وضع أسطوله فى ميناء البوق الذهبى .

وفى أوائل شهر سبتمبر بدأت السفن العربية فى الأبحار إلى البوسفور وعندما وصلت إلى نقطة سيراجليو تقاذفتها تيارات قوية مما أدى إلى حدوث فوضى وأضطراب بين سفن الأسطول العربى، فى هذه اللاحظة خفض ليو السلسلة الحديدية وأطلق سفنه لمهاجمة الأسطول العربى بقذائف من النار الإغريقية مما أجبر الأسطول العربى إلى الأنسحاب بعد أن فقد ٢٠

سفينة وبعدها عاد ليو بأسطوله إلى ميناء البوق الذهبي . لم يحاول بعد ذلك العرب القيام بمحاولة لغلق البوسفور مما أدى إلى وصول الأمدادات الكثيرة للمدينة المحاصرة عن طريق البحر الأسود، بينما أستمر العرب فى حصارهم للمدينة طوال الشتاء القارص ، وكان يعتبر حصـــار العرب للقسطنطينية فى هذا الوقت عمل جرىء لما كانوا يقاسونه من شدة البرد غـــير العادى فى هذه المنطقة .

وفى الربيع وصل إلى العرب بعض التعزيزات من شمـال أفريقيا فقرروا الأبحـار نحو البوسفور لأستكمال تطويق القسطنطينية ، ولـكن كان معظم أطقم سفن التعزيز من المسيحيين المجبرين على القتال فافشوا سر خطة التحرك . وفى اللحظة الحاسمة أبحر أسطول ليو من ميناء البوق الذهبي وألتقى بالجزء الأكبر من الأسطول العربى أثناء تحركه نحو البوسفور وأستطاع ليو تحقيق النصر كاملا على العرب ، وتوج هذا النصر بنصر آخر برى ، فقد حقق حلفـائه البلغاريون نصراً بريا على الجيش العربى فى المنطقة التى تقع بين القسطنطينية وأدرنه .

وأخذ البيزنطيون فى نشر الشائعات بين صفوف العرب بأن الفرنجة يزحفون بجيوشهم نحو العرب للقتال بجانب البيزانطيين لأنقاذ المسيحية ، وعندئذ دب اليأس فى قلب الخليفة العربى ، وبعد أثنى عشر شهراً من حصار القسطنطينية وبالتحديد فى أغسطس ٨١٧ رفع الحصار عن المدينة وأنسحب الأسطول العربى ، فما كان من ليو أن طـاردهم بأسطوله إلى ما وراء الهلسنت حيث أصطدم الأسطول العربى بعاصفة هوجاء قضت على الجزء الأكبر منه ولم يتبق إلا جزء ضئيل ، وكانت كارثة مفجعة لم ينسها العرب . وقد حقق ليو أنتصارا آخر على العرب عام ٧٣٩ عند أكرونون فى فريجيا مما أجبرهم على الجلاء عن غرب آسيا الصغرى وبذلك أطمأن ليو أن الإسلام لن ينتشر فى أوروبا الأغريقية لعدة قرون .

الجيش البيزنطى

لقد كان الفضل الأكبر للأنتصار فى القسطنطينية يرجع لليو ، فقد أستلم قيـادة الدولة البيزنطية فى لحظة عصيبة ، إلا أنه قادها بشجاعة وذكاء فى معركة دفاعية طويلة ضد عدو عظيم له شهره وتفوق كبير فى القوات ، ولـكنه كان لن يحقق هذا النجـاح إذا لم يـكن جيشه وأسطوله قد تم تأسيسهما وتنظيمهما من فترة طويلة وفى ظل التقاليد العسكرية الصارمة

وقد أعتمد ليو على القاعدة الوطيدة من الضبط والربط والكفاءة الموجودة لدى القوات وأقام عليهاصرح جيشه وأسطوله الكبيرين .

فإذا عدنا للوراء لوجدنا أن هذا الجيش قد أسسه بليزاريوس وموريس[١] وزاد من كفاءته هيرا كليوس وأنتصر به على السلاف والفرس (٦٢٢ — ٦٢٨) ثم أثبت هذا الجيش نفسه مقدرة وكفاءة أكثر من مرة وفى أكثر من معركة ضد الجيوش العربية المتفوقة ، وكانت فرسان بليزاريوس الثقيلة تشكل القوة الرئيسية للجيش البيزنطى على مر العصور ، وكان الفارس يرتدى قميصاً معدنياً من رقبته حتى الفخذين ويحمل درعا مستديراً متوسط الحجم وقلنسوة مزودة بخصله من الشعر ، ويرتدى فى يديه قفازاً طويلا يمتد إلى مابعد الرسخ وحذاء من الصلب فى قدميه .

وكانت جياد الضباط وقوات الخط الأمامى مزودة بمقدمة حديدية لحمايتها .

وجميع الجياد مجهزة بسروج مريحه وبها ركاب حديدى .

وكان الجنود يرتدون فى الطقس الحار سترات خفيفة من الكتان فوق دروعهم ،وتتغير هذه السترة الكتانية إلى معطف من الصوف فى الجو البارد .

وكان الفارس يستخدم أثناء الهجوم سيف من النوع العريض وخنجر وقوس قصير وجعبة مملوءة بالسهام وحربة طويلة مزخرفة ومزودة بسير جلدى عند جزءها السفلى الغليظ، وأحياناً كان يحمل الجندى بلطة وتثبت فى سرج الجواد . وكان يرتدى الجيش البيزنطى زى موحد[٢] مكون من معطف وعلم مثلث على رأس الرمح وخصله من الشعر[٣] على الخوذة .

وكان الفارس يجب أن يكون لائقاً جسمانياً حتى يستطيع حمل هذه المعدات الثقيلة ويقاتل بها .

وكان يخدم كل ضابط أو أربعةأو خمسة فرسان جندى وكان هذا باهظ التكاليف ولكن

---

(١) الأمبراطور الذى حكم فى الفترة ما بين ٥٨٢ — ٦٠٢

(٢) تشبها بالجيش الرومانى ومخالفا لجيوش الغرب قبل القرن السادس عشر

(٣) كانت هذه الخصلات متعددة الألوان وكل لون يرمز إلى وحدة من وحدات الجيش .

الجيش كان يضحى بكل هذا فى مقابل أن يركز كل ضابط أو فارس كل طاقته للقتال ويظل دائماً فى حالة جسمانية جيدة وكان لذلك يمنح التغذية الصحية والجيدة . وكانت الدولة البيزنطية لا تجد هناك ضرراً فى منح قوات الجيش بعض الراحة والغنى على أن يتم تنظيم ذلك جيداً أو بذلك لا يؤدى إلى آثار ضارة على المبادىء العسكرية .

أما مشاة الجيش البيزنطى فلم تكن هى « ملكة ميدان القتال » ، لأن دورها كان محدوداً فى الدفاع عن الممرات والمناطق الجبلية وكذا حماية القلاع والمدن الهامة ،وكان معظم المشاة الخفيفة من الرماة ، وخاصة من رماة الرمح ، أما رماة القوس فكانوا أحياناً يرتدون سترات معدنية ولكن فى أحيان أخرى يرتدون سترة قصيرة مشدودة بحزام فى الوسط وينتعلون أحذية قوية ، ويحملون جعبه بها أربعون سهماً وبلطة معلقة فى أحزمتهم يستخدمونها فى حالة الإلتحام مع العدو على مسافات قريبة ويحمل واقياً مستديراً متدلى على ظهره لحمايته .

أما المشاة الثقيلة والتى كان يطلق عليها « سكوتاتوس » فكانت ترتدى رداءا معدنياً وقفازات طويلة ودروعا للساق وخوذة حديدية مدببة من الأمام ومزودة بخصلة من الشعر من الخلف ويحملون دروعا مستديرة وكبيرة ، وكان سلاحهم الهجومى عبارة عن الرمح و السيف والبلطة[١] . وأسوة بالفرسان ، كان للمشاة أيضاً مجموعات كبيرة من تباع المعسكر[٢] ولكل وحده مكونة من ستة عشر رجلا عربتان محملتان بالعتاد والمؤن وأوانى الطهى علاوة على طاحونة يدوية للحبوب بالإضافة إلى معدات الحفر والحصار التى تتضمن المطارق والمجارف والفئوس والمناشير ، كما كان هناك جياد مخصصة لحمل الأمدادات فى حالة المسيرات الطويلة .

الخدمات الطبية والمهندسون فى الجيش البيزنطى

لقد أتبع الجيش البيزنطى نفس النظام التقليدى الرومانى فى إقامة المعسكرات المحصنة ، واقتضى هذا العديد من الأدوات والمعدات والأفراد ، فكان يسير بصفة دائمة مجموعات من المهندسين مع طليعة الجيش . وكان لهم نظام ثابت فى إقامة المعسكرات بأن يخطط المهندسون

(١) كان لها حدين ؛ حد قاطع والآخر مدبب الشكل .

(٢) مجموعة من الأفراد تسير مع الجيش دون أن يكون لهم صفة الجيش الرسمية أو الجنود المقاتلين . « المعرب »

المعسكر ويحددوه بالحبال وعند وصول القوة الرئيسية للجيش توضع الجياد والعربات فى مركز المعسكر مع تنظيمها لتصبح الخط الدفاعى الداخلى ، فى ذلك الوقت تقوم القوات بحفر دفاعات المعسكر تحت حراسة بعض الجنود .

وكان يصحب الجيش علاوة على المهندسين وقوافل التموين وحدات طبية للقيام بالإسعافات للجنود ، فكل وحدة تتكون من أربعمائة رجل ، لها ضابط طبيب وسته أو ثمانية من حملة النقالات ، ومزودين بجياد تحمل زمازم مملوءة بالماء وسرج جانبى له ركابين فى جانب واحد حتى يمكن حمل الجريح بطريقة مريحة . وكان يمنح حمله النقالات مكافآت إضافية عن كل جريح يعودون به من ميدان المعركة ، ولم تكن هذه المكافآت تمنح بدافع من الإنسانية بل كانت الدولة يهمها أن يستعيد الجريح لياقته سريعا ليعود ثانية إلى القتال .

الأسلوب العسكرى البيزنطى

لقد كانت الفكرة الرئيسية للأسلوب العسكرى البيزنطى تكمن فى التنظيم المثير للتكتيك الذى يخوضون به القتال فى براعة وكفاءة . وكان هذا الأسلوب غير ثابت ويختلف فى معركة عن الآخرى ويتوقف على الأسلوب التكتيكى الذى سيتبعه الخصم ، ولذلك درسوا بعناية جميع الأساليب التكتيكية لأعدائهم المنتظرين ثم يخرجون بالأسلوب الذى سيتبعونه مع كل خصم .

وكانت لهم كثير من الكتب العسكرية أهمها كتاب موريس بعنوان «الاستراتيجية» نشر عام ٥٨٠ وكتاب ليو(١) الحكيم بعنوان « التكتيك » علاوة على كتب غاية فى الإثارة عن حرب الحدود وقد كتبه نقفور فوكاس(٢) .

لقد أعاد موريس تنظيم الجيش من حيث الهيكل العام مع وضع أسس للتجنيد ، فلم يكن بالجيش وحدات مستديمة أكبر من التى كان يطلق عليها « نوميروس » فرفع عدد رجال هذه الوحدة حتى وصل أربعمائة وأطلق عليها « تاجما » وجعلها الوحدة الأساسية للجيش .

(١) الأمبراطور الذى حكم ما بين عام ٨٨٦ — ٩١٢

(٢) لقد أنتزع كريت وسيليشيا من العرب وحكم كأمبراطور من ٩٦٣ — ٩٦٩ « المعرب »

ثم قام بعد ذلك بتجميع عدد من هذه الوحدات فى مجموعة واحدة يتراوح عددها ما بين ستة آلاف إلى ثمانية آلاف وكانت تسمى « ميروس » وهى الفرقة .

أما بالنسبة للضباط فكان هناك سلم للرتب يبدأ من رتبة أطلق عليها « ديكوريون »(١) حتى رتبة أطلق عليها « مورارش »(٢) . ويتم تعيين الضباط من رتبة « سنتوريون »(٣) عن طريق الحكومة المركزية ، بينما كانت المصطلحات الفنية المستخدمة فى الجيش خليط من الكلمات الرومانية واليونانية والتوتونية وهذا يوضح التنوع الذى حدث فى عملية توارث الحكم فى الإمبراطورية البيزنطية .

البارونات المولعين بالحرب

لو ألقينا نظرة على الجيش فى عهد جوستينيان لوجدنا أن عدد المرتزقة التوتونيين انخفض فى الجيش البيزنطى بدرجة كبيرة نتيجة للحروب الكثيرة التى خاضها جوستينيان ولم يتبق سوى ثلاثة فيالق بربرية هامة وهى « الفوديراتى والاوبتيماتى والبكيلارى » ، وقد تولى الفيلقين الأخيرين مهمة الحرس الخاص للامبراطور ، ولكن فى أول القرن العاشر حل محلها الفايكنج وكان يطلق عليهم « ڤرانجيان » . وقد حاول الكثير من الأباطرة الوصول إلى تجنيد كل الذكور فى الأمبراطورية ولكنهم فشلوا ، ووصلوا أخيراً إلى نظام يقضى بأن ترسل كل ولاية عدد معين من رجالها ليتلقوا التدريبات والقيام بالخدمة الفعلية فى الجيش الأمبراطورى عند الحاجة لهم ، ولذلك وقع عبء الدفاع عن مناطق الحدود على عاتق سكان هذه المناطق .

وقد وصف شاعر القرن العاشر «ديجينيس أ كريتاس » الحياة على جبهة الكابادوكيه:

« كانت توجد قلاع ضخمة تضم بين جنباتها البارونات المولعين بالحرب ، وقد سيطروا على المنطقة المحيطة بهم بواسطة هذه القلاع ولا يكفون عن القيام بالغزوات داخل الأراضى العربية فى كل من سيليشيا والعراق ، ويعتمدون فى هذه المعارك على جنود أكفاء أتو من كل من كبادوكسيا وإيسوريا ، وتراقية » .

(١) هذه الرتبة مسئولة عن ستة عشر جندياً .
(٢) هذه الرتبة مسئولة عن ألفين من الجنود .
(٣) هذه الرتبة تعادل نقيب

وفى عام ٦٥٠ بدأ الضغط العربى يتراخى على جبهة طوروس ، وفى ذلك الوقت كانت الأمبراطورية البيزنطية مقسمة إلى مقاطعات إقليمية كل منها لها إدارة عسكرية ومدنية منفصلة تسمى « ثيميس » وكل مقاطعة تقدم لجيش الأمبراطورية حوالى عشرة آلاف رجل من المقاتلين الممتازين . أما مناطق الحدود فقد قسمت إلى مناطق أطلق عليها اسم « كايسوارس »[1] .

تشكيل القتال للجيش البيزنطى

كانت النظرية التكتيكية مبنية أساساً على توجيه سلسلة من الهجمات بالفرسان الثقيلة ، وكان خط القتال يتشكل عادة من الفرسان فقط كما حدث عندما انتصر نقفور فوكاس على العرب فى جبهة طوروس عام ٩٦٥ .

وقد وضع ليو الحكيم المبادىء الرئيسية لتشكيل قوات الفرسان فى القتال ، فقسم القوة إلى خط قتال أمامى وخط قتال ثانى لمعاونة الخط الأول ، على أن تشكل قوة صغيرة خلف الخط الثانى كأحتياطى مع دفع مجموعات أخرى على جانبى القوات ويكون واجبها الإشتباك مع أجنحة العدو .

وكان الخط الأول يتحرك كتلة واحدة وبدون أى فواصل أو ثغرات بينما يتواجد فى الخط الثانى ثلاث ثغرات لكى يستخدمها الخط الأول فى حالة الإنسحاب ، وكان عمق كل خط من هذين الخطين يصل إلى عشرة صفوف ، وكان يتواجد مركز قيادة القائد العام دائماً مع الخط الثانى .

ويتم دفع نصف القوة تقريباً فى الخط الأول ، وعندما يتطلب الموقف التكتيكى غير ذلك، تجرى عملية موازنة للقوات التى تشكل فى العمق والقوات التى ستدفع على الأجناب ، وطبعاً كان هنا تغيير مستمر لتشكيل القتال ويتوقف ذلك حسب الموقف التكتيكى ونوع قوات العدو وأسلوبه فى القتال .

ونجد أحياناً أن الفرسان والمشاه يعملان سويا ، وتم استخدام هذا التشكيل أثناء قتال

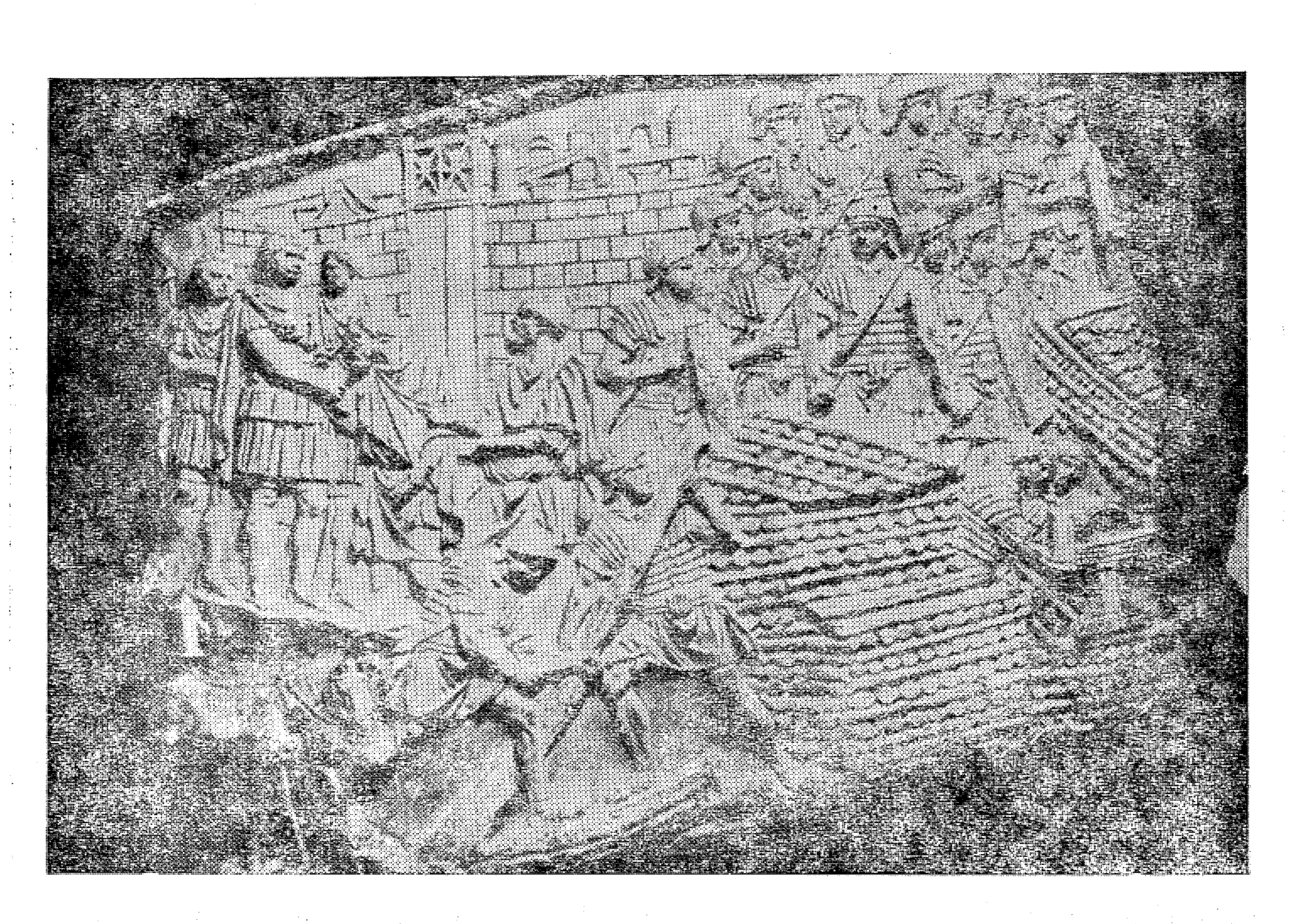
---

(١) الكليسوراس منطقة يجب أن تتحكم فى ممر جبلى ويقام بها قلعة ؛ وكانت قيادة منطقة الكليسوراس هى طريق النجاح فى مضمار القيادة العسكرية « المعرب »

السلاف والفرنجة وذلك لأن جيوش الأعداء كانت قوتها الرئيسية تتشكل من المشاة المترجلة وقد استخدم نفس التشكيل أيضاً ضد غزوات العرب . وكانت المشاة فى هذا التشكيل تسير فى الوسط أما الفرسان فتعمل على الأجناب .

بينما كانت للمشاة فى داخلها تشكيل خاص أيضاً ، فالمشاة الثقيلة تسير فى الوسط بينما المشاة الخفيفة من الرماة وحملة الرماح تسير على الأجناب . وعندما كان ينتظر قيام العـــدو بالهجوم بفرسانة يتغير تشكيل المشاة وتسير الرماة وحملة الرماح خلف المشاة الثقيلة .

وكانت المشاة فى حالة الهجوم تقاتل فى خطين ، أما فى حالة الدفاع فتقاتل فى خط واحد كثيف وبالقرب من معسكرهم . وكانت المشاة تستخدم فى البلاد التى يكثر بها التلال والممرات والشعب لأنه يتعذر استخدام الفرسان ، وتقاتل فى تشكيل هلالى حيث توضع المشاة الثقيلة فى الوسط لحصر العدو فى المنطقة الوسطى بينما تطلق المشاة الخفيفة من حمله الرماح والرماه الموجودة فى أعلى الممرات وعلى أجناب العدو سيولا من قذائفها .



تشييد الحصون على حـــدود الإمبراطورية الرومانية

المهارة تفوق القوة العددية

لقد كان البيزنطيون يعدون من أكفاء الجنود التى شهدها أوائل عصور أوروبا الوسطى ، ولكنهم كانوا غير مثيرين للاعجاب وذلك بسبب استراتيجيتهم الدفاعية ولإستخدامهم لعقولهم قبل قوتهم أثناء القتال ، وقد قاتلوا معارك دفاعية لإبقاء العرب خارج آسيا الصغرى وأثناء طردهم للومبارد والفرنجة من المقاطعات الإيطالية ، والسلاف والبلغار والآفار والمجر والأتراك من اليونان والبلقان. وقد نجحوا إلى حد كبير فى الدفاع عن حدودهم بفضل ماتميزوا به من كفاءة ويقظة . وكان الدفاع عن حدودهم هى المهمة الرئيسيه للجيش البيزنطى ونادراً ماقاموا بالإعتداء على الدول الأخرى ، كما حدث على سبيل المثال فى منتصف القرن التاسع وفى نهاية القرن العاشر .

ولم يتأثر البيزنطيون بميول معاصريهم فى أوروبا الغربية نحو الحروب ، كما أنهم لم يعتبروا الشهامة والبسالة المتهورة والتى كانت سائدة فى هذا العصر هما الطريق الذى يحقق النصر بأقل التكاليف .

وكانوا متحمسين للدين ، ويعتبرون المهارة أهم بكثير من القوة العددية ولذلك وصلوا إلى حد كبير من المهارة فى نصب الكمائن والهجمات الليلية . وفى الواقع لم يكن أمامهم سوى هذا الأسلوب ، لأن وحشية العدو وأعداده الكبيرة كانا يمثلان الخطر المحدق بهم من جميع الجوانب ، وكانوا لايدخلون أى معركة إلا إذا تأكدوا أن النصر سيكون لهم فى النهاية . وفى بعض الأحيان يلجئون لاستخدام الحيل والخدع الحربية كنشر الأنباء والمعلومات الكاذبة بين صفوف أعدائهم مع دفعهم للخيانة .

ولم يستخدموا مطلقا القسوة مع أسراهم وينفذون دائماً مايعدون به ، وكانت الخيانة بالنسبة لهم سلاحا استراتيجيا وقد وضع الباحثون العسكريون البيزنطيون النظريات المختلفة لأساليب القتال مع أعدائهم المتعددين وعلى سبيل المثال وضع ليو الحكيم التعليمات بأسلوب القتال الذى يتبع مع البلغار والمجر والأتراك بعد أن وجد هذه الشعوب تقاتل بالفرسان الخفيفة فى السهول الشرقية والأوروبية والغربية والآسيوية وفى جماعات صغيرة لا حصر لها ، سلاحهم الرئيسى القوس ويستخدمون إلى جانبه الرمح والسيف المحدب مع تميزهم باليقظة والحذر

والكفاءة العالية فى أعمال الاستكشاف مع ولعهم الشديد بنصب الكمائن ، وكانوا يهاجمون الجبهة من جميع الإتجاهات ويمطرونها بسيل من السهام و بهجمات قصيرة متتالية قاتلة .

وبعد أن درس ليو الحكيم كل ذلك أوصى بقيام الفرسان البيزنطية الثقيلة بالالتحام مع فرسان العدو عن قرب حتى يستطيعوا الانقضاض عليهم فى أول فرصة مواتية وخاصة أن فرسان العدو تصبح عاجزة تماما بعد فقدها لخيولها .

وقد أوصى ليو الحكيم كل قائد بيزنطى يلتحم مع فرسان الأتراك أن يراقب أجنحته جيداً ، على أن يكون حذرا من الدخول فى أى مضيق أو ممر ضيق خوفا من الوقوع فى الكمائن المنصوبة وقد أوصى أيضاً بألا تقوم الفرسان بمطاردة العدو بدون تروى وعمل الترتيبات المسبقة ، لأن كثيراً ما تؤدى هذه المطاردة إلى الهزيمة ، لأن فرسان الأتراك كانوا دائما يقومون بانسحاب مخادع حتى يجذبوا البيزنطيين إلى أرض قتل من اختيارهم ثم يتجمعوا بسرعة وينقضوا عليهم .

وكانت تعليمات ليو ذات فائدة كبرى استفاد منها الضباط والجنود على السواء .

الزاب الأعظم

وقد وضع ليو أيضاً أسلوب القتال الذى يتبع مع قبائل السلاف الذين اعتنقوا المسيحية فى النصف الثانى من القرن التاسع وأصبحوا تابعين للأمبراطورية البيزنطية وسببوا لها بعض القلاقل لمدة طويلة ، وبالرغم من افتقارهم للفرسان كانوا قوما لا يقهرون إذا قاتلوا فى الجبال .

فقد أوصى ليو بأن يتقدم الجيش البيزنطى بحذر فى ممرات الجبال خفوا من الكمائن التى ينصبها لهم رماة وحملة الرماح السلافيين ، أما فى السهول فكان يسهل على الفرسان البيزنطية دفع السلاف أمامهم لأفتقارهم للفرسان والتسليح مع سوء تنظيم قواتهم .

أما العرب فكانوا أشد أعدائهم بأساً وزاد هذا البأس بعد القرن الأول للفتح الإسلامى عندما شكل العرب جيوشهم على شاكلة الجيش البيزنطى وأصبح رماحيهم المدرعين قوة لا يستهاب بها علاوة على فرسانهم التى كانت أخف من الفرسان البيزنطية . وقد طبق العرب بعض الأساليب البيزنطية فى مجال التحصين وفى الحصار ، وبالرغم من كل هذا كان العرب

لا يقدرون المميزات الحقيقية لتنظيم القوات وتدريبها وأنها العامل المساعد للضبط والربط ، ولم يكن لديهم قوات متخصصة باستثناء الحرس الملكى .

وقد تميز العرب بحشد قوات كبيرة من جميع القبائل العربية ، أتصفوا بخفة الحركة والقوة والطاقة الروحانية والهجوم الخاطف الذى يشيع الرعب فى صفوف أعدائهم .

وقد أثر فشلهم فى فتح القسطنطينية عام ٧١٨ على قوتهم الدافعة وبالرغم من ذلك قاموا بعدها بمحاولتين جادتين لفتح ماوراء طوروس عام ٨٠٦ ، ٨٣٦ ولكنهم فشلوا فى ذلك . ولذلك نجد أن نبضات الفتوحات الإسلامية أخذت تضعف بعد عام ٧٥٠ وبشكل سريع عندما أنتزع العباسيين الخلافة من الأمويين بعد معركة دارت بينهما احدى عشر يوما عند الزاب الأعظم[١] . وقد أزدهرت الحضارة الإسلامية ازدهاراً كبيراً فى عهد العباسيين[٢] بينما أضمحلت القوة العسكرية لأن الخلفاء العباسيين كانوا لا يميلون المواضيع العسكرية

العالم الأسلامى يتجزأ الى خلافات :

والآن ، بدأ العالم الإسلامى يتجزأ ببطء إلى خلافات متعددة ، وأصبحت الهجمات العربية على آسيا الصغرى مجرد غارات أكثر منها محاولات للفتح . وكان ذلك من حسن حظ الإمبراطورية البيزنطية التى بدأت تضعف هى الأخرى تحت تأثير النزعات السياسية والدينية فى القرن الثامن والتاسع ومع بداية القرن العاشر ، فى ذلك الوقت وصلت الإمبراطورية البلغارية إلى ذروتها تحت قيادة سيمون الذى حاصر القسطنطينية عام ٩٢٣ ولكنه لم ينجح فى دخولها .

وفى عام ٩٤١ حوصرت المدينة مرة أخرى بواسطة أمير كييف وهو إيجور .

نعود ثانية إلى ليو الحكيم فنجد أنه وضع أفضل استراتيجية ضد غارات العرب وذلك بعد أن وجد الجيش العربى عندما حاول عبور طوروس كان يتقدم بسرعة مذهلة مع استخدام المفاجأة على أمل الوصول إلى هدفه قبل أن يأخذ سكان المنطقة حذرهم أو حتى قبل أن يعلموا بوجوده ، وجد ليو أن قادة المقاطعات البيزنطية لديهم أساليب ممتازة فى حراسة

---

(١) الزاب الأعظم بالقرب من جوجاميلا

(٢) كان مركز هذه الحضارة عاصمة العباسيين فى بغداد

حدودهم ، لذلك أوصى هؤلاء القادة بتجهيز قواتهم بمجرد وصول أنباء تحرك العرب ، على أن تقوم المشاة بسد الممرات بينما تحشد الفرسان فى منطقة متوسطة وتكون على اتصال دائم بقوات العدو وتقوم بالهجوم فى الوقت المناسب ، وإذا وجد القائد البيزنطى أن قوات العدو تفوقه عدداً عليه أن يتجنب الدخول معها فى معركة مفتوحة وليس هذا معناه عدم الاشتباك معها إطلاقا ولكن عليه بشتى الطرق الممكنة أن يحاول إعاقة تقدم العدو بأن يقوم مثلا بتوجيه ضربات خفيفة للعدو كلما سنحت له الفرص بذلك ، أو الدفاع عند المناطق الضحلة على الأنهار أو عند الممرات أو الشعب الضيقة أو بتدمير آبار المياه مع إقامة المتاريس على الطرق الرئيسية ، فى ذلك الوقت يمكن حشد مزيد من القوات من المقاطعات البعيدة ، والدخول مع العرب فى معركة متكافأة فى القوة ، وقد استخدمت هذه الطريقة وأمكن حشد حوالى ثلاثون ألفاً من الفرسان البيزنطيين فى عام ٨٦٣ من عشرة مقاطعات وأمكن بذلك تطويق الجيش العربى والقضاء عليه .

وقد أثبتت الخطوط الدفاعية البيزنطية قدرتها على الصمود فى وجه الهجمات المتتالية لجحافل العرب ، وكانت هذه الجحافل دائماً تتعرض لهجوم البيزنطيين أثناء تجولهم للبحث عن المراعى والعلف أو أثناء عودتها من الأراضى البيزنطية وهى محملة بالغنائم .

وقد أوصى نقفورفوكاس بالقيام بهجوم ليلى على العرب فى مثل هذا المواقف فقال : «أرسلوا ثلاثة مجموعات من المشاة لمهاجمة معسكر الأعداء من ثلاث جهات ، أما إذا كان العدو متحركا فادفعوا إليه بقوات مترجلة لمهاجمة مقدمته مع ترك مؤخرته فى كلتا الحالتين السابقتين بدون هجوم حيث الطريق إلى بلاده مفتوحا ، ودائماً وبطريقة غريزية سيمتطى العدو جياده ويهرب فى أول طريق يراه ويؤدى به إلى الأمان » .

فى النصف الثانى من القرن العاشر انقلب الجيش البيزنطى من مدافع إلى مهاجم ضد كل من العرب والبلغار ، واستولى نقفورفوكاس فى عام ٩٦١ على كريت وفى عام ٩٦٥ على طرسوس وقبرص ، وفى عام ٩٦٩ على أنطاكية .

ومن أعظم ما شهدته الإمبراطورية البيزنطية من العسكريين البارزين كان بازيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٥٢) ، ففى عام ٩٩٥ أخمد تمرد قام به نبلاء آسيا الصغرى ، ثم أقام جبهة دفاعية قوية فى أرمينيا ثم تحول بعد ذلك ليقاتل البلغار .

أسر الامبراطور البيزنطى

وفى عام ١٠١٤ أستطاع بازيل من إبادة الجيش البلغارى عند بيلاسيتزا ، ولقب من ذلك اليوم بـ « قاتل البلغار » فقد قام بفقأ أعين ألف وخمسمائة من الأسرى وترك لكل مائة منهم رجلا بعين واحدة ليقودهم إلى قيصرهم .

وقد استمر الجيش البيزنطى فى تقدمه نحو الشرق ، وأخيراً انضمت أرمينيا عام ١٠٤٥ إلى الإمبراطورية البيزنطية ، وكان يتباهى الإمبراطور بأن رقعة الإمبراطورية اتسعت وامتدت أكثر من أى عهد سابق منذ الإمبراطور تراجان .

ولكن فى منتصف القرن الحادى عشر بدأ زحف عدو جديد على الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية وهو الأتراك السلجوقيين ، ولم تختلف أساليبهم عن أساليب الأتراك القدامى الذى شرحها ليو الحكيم قبل ذلك . وتمكن البيزنطيون لفترة من الوقت صد هجمات هذا العدو ، ولكنه فى النهاية أصبح يشكل تفوقا عدديا مخيفا ، ولسوء حظ البيزنطيين أن تربع على عرشهم فى هذه الفترة عام ١٠٦٨ إمبراطوراً جديداً هو رومانوس الرابع وقد أغفل وبحماقة التقاليد والقواعد التقليدية البيزنطية الخاصة بالكفاءة والحذر .

ففى ربيع ١٠٧١ دفع رومانوس بستين ألفا من الجنود إلى أرمينيا ليقاتل مائة ألف من الأتراك[١] ، وقبل أن يلتقى بالقوة الرئيسية للعدو كان قد فقد أعداداً كبيرة بسبب تحركاته التى أتسمت بالأهمال وعدم أجراء الترتيبات اللازمة لتحرك هذه القوة الضخمة . وألتقى بالعدو عند ملازكرت واسفرت المعركة على دحر الأتراك وأجبارهم على الأنسحاب ، ولكن مع حلول الظلام ، جمع الأتراك شملهم واعادوا تنظيم صفوفهم مرة أخرى ، بينما كان البيزنطيون يعودون إلى وطنهم ويسيرون بدون نظام وغير متماسكين وهم مطمئنين لتحقيقهم النصر كاملا ومع خيوط الفجر الأولى كان الجيش البيزنطى مطوقا ، فطلب رومانوس من القائد الخائن للاحتياطى البيزنطى تقديم العون له ولكنه رفض مما أدى إلى تمزيق الجيش إلى أجزاء صغيرة وسقط الإمبراطور نفسه أسيراً .

---

(١) كان يقود الجيش التركى ألب أرسلان

بذلك أباد الأتراك صفوة الجيش البيزنطى وأصبحت العاصمة بدون قيادة ، فتدفق الأتراك داخل آسيا الصغرى وحولوها خلال عشرة سنوات إلى مساحة من الأرض القفر الخراب .

فرانسيسكا (أنظر اللوحة ١٤)

لو ألقينا نظرة فى ذلك الوقت على أوروبا الغربية ، لوجدنا أن الفرنجة منذ القرن السابع وهم يتبعون منوال البيزنطيين ، فأستطاعوا صد تقدم العرب بجيش قوته الرئيسية من الفرسان ، ولكن لم يستمر الحال على وتيرة واحدة ، فبعد أزدهارهم فى السيادة العسكرية والحضارية أصابهم الوهن ، وتم ذلك لتعرضهم لهجمات شعب بربرى آخر والذى يعرف بأسم الفايكنج .

فلو عدنا إلى الوراء لوجدنا بعد أن أنتصر كلوفيس فى فوبية عند بواتييه عام ٥٠٧ وسيطر الفرنجة على الغال ، لم يتغير تنظيمهم وأسلوبهم العسكرى لمدة قرنين من الزمان .

وقد وصف أجاثياس الشاعر والمؤرخ الأغريقى فى منتصف القرن السادس حرب الفرنجة فى الحقبة الميروفنجية[١] قال : — « كان تسليح الفرنجة بدائياً جداً ، فلم يرتدوا القمصان المعدنية أو دروع الساق ، بل يحمون أقدامهم بشرائط من الجلد أو الكتان ، وفى النادر كانت لهم فرسان وقليلة ، ولكن مشاتهم تميزت بالبسالة والتدريب العالى وكانوا مسلحين بالسيوف والدروع ، ولكنهم لم يستخدموا قطا القوس ، أما قذائفهم فيستخدمون فيها الفأس أو الرمح الشائك[٢] » .

وكان من أبرز أسلحة الفرنجة فأس القذف والتى أطلق عليها « فرانسيسكا[٣] » وكانت تشابه التوماهوك[٤] وكانت الفرانسيسكا توزن بعناية حتى يمكن قذفها وأصابة الهدف بدقة متناهية علاوة على أستخدامها فى القتال المتلاحم . أما الدرع فكان عريضاً له شكل بيضاوى ومزود بحافه حديدية والسيف يصل طوله إلى ثلاثة أقدام وله شفرة مزدوجة وسن مدبب وبالتالى كان ممكن أستخدامه فى القذف والقطع ، كما أستخدم أيضاً الخنجر ذو الشفرة

---

(١) أسم العائلة الحاكمة الأولى التى تولت الحكم فى بلاد الغال .

(٢) كانت هذه الرماح قصيرة وتستخدم فى كل من الطعن والقذف .

(٣) كانت رأسها ثقيلة ولها شفرة واحدة طويلة مقوسة .

(٤) أسم الفأس الذى يستخدمه الهنود الحمر (قبيلة لتوماهوك) .

العريضة . أما خوذة الفرنجة فكانت مزخرفة ذات قمة مستديرة ولها بروز مدبب مقدمتها ويصل جزئها السفلى حتى خلفية العنق .

وقد قاتلت جيوش الفرنجة حتى منتصف القرن الثامن بهذا المستوى من التسليح، ولكن فى حشد ضخم من القوات وتسير فى طوابير غير منتظمة من المشاة .

وكان الحكم الميروفنجى (٤٥٠ — ٩٥٠) حكما ضعيفاً بربرياً مما أدى أن الفرنجة كانوا يقاتلون أنفسهم وليس أعدائهم الخارجيين لأنهم كانوا على حذر من الشعوب التى تقاتل من فوق ظهور الخيل وبدروع أكثر على الجسم . ولكنهم أجبروا على تغيير أسلوبهم فى القتال والتسليح بعد أزدياد أشتباكهم بتلك النماذج المختلفة من هذه الجيوش .

ومع نهاية القرن السادس بدأ الأثرياء فى أرتداء الدروع المعدنية على الصدر ولكن فى القرن السابع أختفت هذه الدروع المعدنية للصدر وأزداد أستعمال « البرونيا »[1] . ومع تطور الدروع ، تطور فى نفس الوقت أستخدام الخيل ، واول مرة يستخدم فيها الفرنجة الخيل فى المعركة التى خاضها كاوتيد الثانى ضد السكسون ، عام ٦٢٦ ، ولكن بعد ذلك بقرن على الأقل ، كان الأثرياء فقط يستخدمون الخيل كأداة نقل فقط لميدان المعركة ، وعند القتال الفعلى يهبطون من فوقها ويقاتلون مترجلين .

الملك شارلمان : (أنظر اللوحة رقم ١٤)

فى عام ٧١٨ هاجم العرب مملكة أكويتانيا ، ولم يهتم الفرنجة فى أول الأمر لهذا الهجوم ولكن أتضح لهم أن الموقف بدأ ينذر بالخطر بالنسبة لهم عندما قام الخليفة عبد الرحمن عام ٧٣٢ بقيادة جيش من العرب وصل به إلى تور ، فما كان من تشارلز مارتل[2] أن حشد قوة كبيرة من الفرنجة وتقدم بها ليقاتل العرب الذين كانوا فى طريقهم إلى بواتييه ، وتقابل الجيشان عند بواتييه وأستمرت المعركة سبعة أيام وكان العرب يقاتلون بفرسانهم الخفيفة بينما الفرنجة تصارعهم بمشاتهم . وقد وصف الكاتب أسيدورس بالكينسيس هجوم الخليفة عبد الرحمن فقال : — « وقف رجال الشمال بدون حركة وكأنهم حائط ثابت ، وكانوا يشبهون حزاماً من

(١) البرونيا عبارة عن قميص مكون من شبكة معدنية

(٢) كان يشغل منصب ناظر القصر الميروفنجى .

الثلج تجمدت أجزاؤه سويا وأصبح غير قابل للذوبان عند ألتحامهم مع العرب بالسيوف ،وشق الأسترازيون طريقهم ببسالة وسط القتال الضارى للعرب حتى عثروا على الملك العربى وصرعوه»

وكانت معركة دفاعية حقق فيها المشاة النصر ، ولم تتم أى مطاردة لقوات العرب بعد ذلك ، ولكن لا يمكن القول بأن الفرنجة هزموا العرب بنفس الأسلوب الذى أتبعه البيزانطيون سابقاً ، ونجد أيضاً أن العرب لم يتوغلوا داخل أراضى العدو إلا بالقدر الذى سمحت به مواردهم وأمكانياتهم .

فى عام ٧٤٣ قاموا مرة أخرى بالزحف نحو الرون للاستيلاء على ليون، فى نفس الوقت لم يجلوا عن القاعدة العسكرية فى ناربون حتى عام ٧٥٩ .

وعلى كل ترجع أهمية معركة تور أنها أكدت ان تشارلز مارتل أصبح أقوى شخصية فى فرنسا . وفى عام ٧٥١ قام بيبين[١] بخلع الملك كلدريك الثالث الميروفنجى ، وفى عام ٧٦٨ قام تشارلز[٢] بأرتقاء العرش كملك على الفرنجة .

قوات الصدمة النفسية

عند دراستنا للنهضة العسكرية فى عصر شارلمان ، يصعب علينا فهم الحوافز الحقيقية التى دفعته لذلك ، ولكن نستطيع أن نرى بوضوح بعض العوامل الملموسة لذلك منها خوفه من الفوضى والخطر اللذان يهددان مملكته ، لأن جيرانه المعادين السكسون لا يستجيبوا إلا بالقوة ، علاوة على حبه لنشوة النصر والنجاح ، زد على ذلك أنه كان يعتبر نفسه حاكماً على مستوى عالمى وشريكاً للبابا والوصى الذى أرسله الله إلى الأرض للفصل فى الأمور الدنيوية . فكان له مبشرين يسيرون بين صفوف جيوشه يؤمنون أيماناً راسخاً أنهم يمثلون قوات الصدمة النفسية ، وكان شارلمان يعتمد عليهم ويعتبرهم من القوات الرئيسية عند غزوه لشعب وثنى[٣] ، حتى يتثنى لهذا الشعب أعتناق المسيحية .

---

(١) بيبين أبن مارتل

(٢) تشارلز أبن بيبين وكان يعرف بأسم شارلمان .

(٣) كان يعتبر شارلمان تحول القوم الوثنيين إلى المسيحية ، تكملة رئيسية وحيوية لغزواته الحربية «المعرب»



اللوحة رقم ١٤ امبراطورية الفرنجة وغارات الفايكنج والمجريون والعرب

وقد احتفل فى روما على يد البابا فى عيد الميلاد لعام ٨٠٠ بتتويج شارلمان كأمبراطور . وكان شارلمان متعصباً وقاسياً والدليل على ذلك المذبحة التى قام بها عام ٧٨٢ فى فردان وراح ضحيتها أربعة آلاف وخمسمائة متمرد وثنى من السكسون فى يوم واحد ومثال آخر لذلك يتمثل فى القانون الذى اصدره ويعتبر فيه الهروب من العماد[1] أو أكل اللحم أثناء الصوم الكبير من الآثام التى تصل عقوبتها إلى الأعدام ، إلا أنه تغير بعد مدة وأقلع عن قسوته وتعصبه . وكان يعتبر شارلمان عبر العصور الوسطى نموذجاً للأمبراطور المسيحى ، وكانت حكومته تعتقد أعتقاداً راسخاً بأنها تمارس سلطة مقدسة أستمدتها من الرب ، كما أنها أعتبرت جميع حروب شارلمان حروباً صليبية .

مذبحة رنسفال

(أنظر اللوحة رقم ١٤)

لقد قام شارلمان بحملات كثيرة بين عامى ٧٦٨ ، ٨١٤ قاتل فيها اللومبارد والسكسون والأسبان والمسلمين والصرب والآفار ومقاطعات جنوب أيطاليا البيزنطية وريتانى والفرزيان ودوقية بنفينتو ، وفى النهاية زادت رقعة امبراطوريته حتى ضمت المناطق التى تتمثل حالياً فى فرنسا وبلجيكا وهولندا وسويسرا وألمانيا الغربية ومعظم إيطاليا وشمال أسبانيا وكورسيكا . وقد ذاعت شهرته فى الحرب التى خاضها ضد أسبانيا ، لأنها كانت حرب صليبية ضد المسلمين وسبب هذه الشهرة المذبحة التى قام بها رجال مؤخرة جيشه أثناء عودتهم إلى الوطن عند مضيق رنسفال فى عام ٧٧٨ ، وأصبحت هذه المذبحة موضوعاً شعرياً عرف بأغنية « رولان » ، ولكن لو ألقينا نظرة على الحرب التي دارت بينه وبين السكسون لوجدنا أنها كانت فى أول الأمر عبارة عن غارات مستمرة وجريئة لهذه الشعوب البربرية والوثنية (القاطنة لسهلى ألمانيا الشمالى بين الراين والألب) على حدود الإمبراطورية مما أضطره فى النهاية إلى تقوية هذه الحدود بإقامة مواقع قوية على طول نهر ليب مع إنشاء تحصينات قوية عند بادربورن وأرسبرج وسيجرج ، ومن هذه الحصون دفع قواته لمهاجمة السكسون لتأديبهم ، وكانوا يتصنعون الإستسلام والخضوع أثناء هذه الهجمات وعندما يكف عنها ينفجرون منطلقين فى أراضى الراين كما حدث فى عام ٧٧٨ ، ونتج عن ذلك أن قام شارلمان بغزو شامل لبلادهم فيما بين

---

[1] من طقوس الدين المسيحى

عامى ٧٨٢ ، ٧٨٥ حيث قاد بذكاء ثلاثة جيوش تقدم على ثلاث محـــاور مع إستغلال خفة حركتها والتعاون بينها مما أدى أن أصبح زحفا مدمراً وانهزم السكسون وكان يقودهم ويدوكيند .

شارلمان والاقطاع

لقد كان جيش شارلمان يختلف تماماً فى تنظيمه عن جيش جده تشارلز مارتل ، والفارق الأساسى كان فى القوة الضاربة لجيش شارلمان التى تمثلت فى الفرسان الثقيلة ، وكانت هى العنصر الرئيسى لجميع حملاته التى تنطلق لمسافات بعيدة لمهاجمة أعدائه من حملة الأقواس الراكبين من الآفار وقوات اللومبارد الثقيلة من رماة الحراب . وقد عرف أهمية الفرسان منذ عهد بعيد ، ولـكن نفقات تشكيلها كانت باهظة ولذلك أصبحت مشكلة أمام الفرنجـة وإستحال عليهم تذليلها . فـكان يصعب على الفارس الحصول على الجواد القوى المناسب ليحمله هو ودروعه الثقيلة ، على أن يـكون مدربا تدريباً كافياً حتى لايفزع أثناء المعركة ويكون سريع لإستغلال خفه حركته فى الهجوم ، وكان مثل هذا الجواد لابد أن يـكون من سلاله معينة ولابد من تدريبه تدريباً خاصاً ، ومن المشكلات التى برزت أمام الفرنجه النفقات الـكبيرة لأقامه الأصطبلات وتوفير العلف فى الشتاء مع وجود تابعين على الأقل لـكل فارس ، واحد ليعتنى بدروعه والثانى يعمل كسائس لحصانة علاوة على كل هذا كانت الدروع غالية الثمن

وأكثر من ذلك ، كان يجب أن يـكون الفارس قادرا على تـكريس وقتاً طويلا للتدريب والخدمة العاملة فى الجيش، لذلك فى الحقبة الميرفينجية ،لم يـكن هناك حاكماً فرنجياً على قدر من الثراء يستطيع تشكيل جيش من الفرسان الثقيلة . وقد حلت هذه المشكلة بإنشاء ونظام الأقطاع[1] . وقد أستفاد تشارلز مارتل من النظام الإقطاعى ، فضم إلى جانبه بعض

---

(١) لقد ظهر هذا النظـام لـكثرة وجود اللصوص والأشرار وفى ذلك الوقت ونشرهم الرعب بين الناس ، ولم يجد هؤلاء الناس من يحميهم ، فلجأوا إلى اللورد أو الـكونت صاحب النفوذ فى المنطقـة يطلبون منه الحماية ، وكان يـكفل لهم الأمن والنظام فى مقابل تخليهم له عن ملـكية أراضيهم مع الاستمرار فى زراعتها ، مع تعهدهم بتأدية بعض الخدمات المعينة ؛ وكانت مدنية فى بعض الأحيان ولـكن كانت بصفة عامة ذات طابع عسكرى . «المعرب»

الشخصيات الهامة فى الدولة ، ثم جاء بعد ذلك شارلمان وتوسع فى تطبيق هذا النظام الاقطاعى فى إمبراطوريته ، فكان هذا النظام يجذب الأغنياء ومن يرغبون فى الحماية فى هذه الأوقات المضطربة .

وعلى كل فقد أستفاد الجيش من هـذا النظام لأن ملاك الأرض كانوا يقدمون الأرض اللازمة للتدريب وخدمة الفرسان ، علاوة على تحسن نظام الجيوش بسبب نظام الإلتزام المتبادل « الحماية ... والخدمة » .

ومن الوثائق التى مازالت باقية حتى الآن والتى تدل على إستغلال شارلمان لنظام الأقطاع لصالحه ، رسالة أرسلها إلى أسقف التاش فولارد يطلب فيها أنضمامه لجيشه الملكى عام ٨٠٦ وتضمنت : —

«عليك الحضور فى يوم ٢٠ مايو إلى ستاسفورت على نهر البودا وتـكون مستعدا أنت ورجالك لخوض الحرب فى جانبنا ، وفى أى جزء نحدده فى إمبراطوريتنا ، ويـكون لدى كل فارس درع ورمح وسيف وخنجر وقوس وجعبة سهام، مع تجهيز عرباتك بالجوارف والمعاول والأوتاد الحديدية المدببة ، علاوة على الأسلحة والمعدات والأمدادات الضرورية للقوات ،على أن تـكفى هذه المؤمن الجنود ثلاثة شهور .

وأثناء تقدمك إلينا عليك ألا تدمر أى ممتلـكات لرعايانا ولا تمس قواتك سوى المياه والعشب والأخشاب . وحتى تنال رضانا ورحمتنا ضع فى حسابك دائماً ألا يكون هناك أى أهمال » .

عبقرية شارلمان العسكرية

بعد أن فتح شارلمان إيطاليا قام بتجنيد قوة من فرسان اللومباردى فى جيشه ، وهـذا يدل على قدرته الفائقة فى القيادة لاستطاعته حث أعداءه التقليديين وهم اللومبار على الإنخراط فى جيشـه مع دفعهم بعد ذلك إلى المناطق البعيدة فى أوروبا الشرقيـة لمقاتلة الآفـار .

وعلى كل فكانت الفرسان الثقيلة تمثل العامود الفقرى لجيش الفرنجة بالرغم من قلة عددها إلا أن نوعيتها كانت ممتازة . وكان جميع الفرسان يزودون بالقمصان المعدنية والخوذات

والدروع والفئوس والحراب، وبالرغم من ذلك لم تختف تماماً طريقة الفرنجة القديمة فى تجنيد المشاة العنوى[١] .

ولـكن بعد تطوير نوعية التسليح خفضت أعداد المشاة فى الجيش . وحتى الآن لايوجد لدينا دليل واضح على الأسلوب التـكتيكى التى اتبعة الفرنجة فى المعارك ،ولـكن من المحتمل أن الرماةمن المشاة كانت تندفع لأجراء بعض المناوشات التمهيدية ، وبعدهاتنطلق الفرسان فى هجوم حاسم قوى وفى حشد .

وعلى كل كان يـكمن وراء نجاح شارلمان التنظيم الرائع لجيشه وجنوده المدربين تدريباً عالياً وأسلحتهم الممتازة المتطورة علاوة على عبقرية شارلمان الإستراتيجية والتى يمـكن الإستعاضة بها عن أى أسلوب تـكتيكى ممتاز .

ونجد أن شارلمان قام بفتوحات واسعة وكون إمبراطورية مترامية الأطراف وأستطاع المحافظة عليها بإقامة المواقع المحصنة على طول الحـدود وكذلك فى المناطق المضطربة مع أقامه الحصون فوق التلال المجاورة للأنهار . وكان يشيد هـــذه القلاع فى مكان المدن الرومانيـــة القديمة ومطابقة تماماً للمعسكرات الرومانية ولـكنها لم تـكن مبنيـة بطريقة قوية .

الفرار والعار

فى القرن التاسع بعد موت شارلمان ، تولى الحـكم ملوك ضعاف ، لـكن الهيـكل العام للجيش ظل كما هو ، ويتشكل أساساً من جيش إقطاعى من الفرسان ولـكن نوعية هذا الجيش تصدعت .

فقد عادت بعض نقط الضعف القديمة للعهد الميروفينجى فى الظهور ، ونتج عن ذلك أن الفرنجه لم تستطع هزيمة البيزنطيين فى شمال إيطاليا .

وقـد دون ليو الحـكيم بعض خصائصهم وأسباب فشلهم فقال : — « كان الفرنجـه واللومبارد قوم مفرطون فى البسالة والجرأة ، علاوه على إعتبارهم لأى إنسحاب عار كبير ،

(١) التجنيد العنوى : هو لجوء الشعب لحمل السلاح دفاعا عن النفس عن تعرضه لهجوم مفاجىء للعدو دون أن يجد فرصة كافية لتنظيم صفوفه وفقا للقواعد العسكرية المقررة

وكانوا يخوضون القتال عندما تتهيأ لهم الظروف المواتية . وكان فرسانهم عندما يلاقون أى صعوبة فى القتال يترجلون ويقاتلوا مترجلين ويتآزرون ضد العدو والذى يفوقهم عدداً بدلا من الفرار من المعركة .

وكان فرسان الفرنجه يهجمون بشراسة وقوة شاهرين سيوفهم العريضة ورماحهم ودروعهم الضخمة فكثيرا ما يعدل أعداأهم عن الدخول معهم فى قتال متلاحم قبل أن يتأكدوا أن الظروف ستكون فى جانبهم فى المعركة أو أنهم سينتهزون الفرصة عندما يسود الإضطراب أو عدم النظام فى صفوفهم .

وكانت الفرنجه يهجمون دائماً بحشد كبير من الفرسان أو المشاة ، وهذه الجحافل كانت صعبة القيادة ويصعب على القائد أن يناور بها ويرجع ذلك لعدم وجود تنظيم أو تدريب عسكرى لديهم ، فلم يكن لديهم قوات منظمة فى فصائل وكتائب وفرق مثل جميع الجيوش .

وكانت الفرنجه تصاب بالأضطراب والفوضى إذا فوجئوا بهجون على أجنابهم أو مؤخرتهم .

وكثيرا ما كان يحدث مثل هذا الهجوم المفاجىء لإهمالهم فى تحصين معسكراتهم وعدم وضع حراس حولها أو دفع أفراد للحصول على معلومات عن العدو مع مسح المدن التى يحتلونها .

وكانوا يقيمون معسكراتهم دون تحصينها ولذلك كان من السهل عزل أى معسكر بالقيام بهجوم ليلى .

وكانت قواتهم غير صبوره على الجوع والعطش ، ويكفى بضعة أيام من الحرمان ليكفروا بعبادئهم وقيمهم .

ولذلك كانوا يفتقرون للضبط والربط وإحترام قادتهم ، كما أن قادتهم بدورهم لم يكونوا فوق الشبهات ، فكانوا مرتشين . وبصفة عامة ، ولكل هذه الأسباب كان يسهل أنهاك جيش الفرنجة بالمناوشات والعمليات الطويلة فى المناطق المقفرة المهجورة مع قطع الإمدادات عنهم ، وهذا أسهل من محاولة تحطيمهم بضربة واحدة » .

الانفجار المثير للفايكنج (أنظر اللوحة رقم ١٤)

لقد قلنا قبل ذلك أن الإمبراطورية بدأت تتمزق بسرعة بعد موت شارلمان ، بسبب الحرب الأهلية التى سادت عصر خليفته لويس ، ولـكن أهم أسباب هذا التمزق هو التأثير المشترك للغارات التى حدثت فى وقت واحد على الإمبراطوية ومن ثلاث جبهات خلال القرنين التاسع والعاشر من العرب والمجر والفايكنج . فالعرب احتلوا صقلية وجنوب إيطاليا وقاموا ببعض الغارات على الساحل الفرنسى المطل على البحر المتوسط ، أما فرسان المجر فقد أثاروا رعباً أشد فى المناطق الشرقية البعيدة كما قاموا بعد عام ٩٠٠ بغارات متكررة بعيدة المدى خلال ألمانيا إلى داخل بروفانس و بورجندى ، واستمرت تلك الغارات حتى تمكن السكسون بقيادة هنرى من صد فرسان المجر فى معركة عندنهر انستروت عام ٩٣٣، لـكنهم هزموا تماماً عندما انتصر عليهم أوتو العظيم فى ليشفيلد عام ٩٥٥ .

لم يتبق غير الفايكنج الإسكندنافيين وكانوا يشكلون الخطر الحقيقى الرهيب على أوروبا ومع هؤلاء القوم . . . الفايكنج سوف نواكب الآن دراستهم .

الفايكنج يغزون أمريكا فى القرن الحادى عشر (أنظر اللوحة رقم ١٤)

ليس هناك حتى الآن تفسير مقنع يشرح لنا أسباب الانفجار المثير للفايـكنج أو الاسكندنافيين ، كما كانوا يعرفون فى نهاية القرن الثامن .

وقد ظهرت من غاراتهم على كل أنحاء أوروبا أنهم يسعون أساساً وراء النهب والسلب أكثر من سعيهم وراء الإستعمار والاحتلال ، بالرغم من أن الـكثير منهم استقر واستوطن فى بعض البلدان التى اجتاحوها ، وقد تم استـكشاف ثلاثة سفن لهم عند ورشام فى إنجلترا عام ٨٧٩ .

وفى الجيل التالى نهبت أديرة لندسنارن ورموث فى إنجلترا وهوجمت كل من إيرلندا وفرنسا . ومن ذلك الوقت بدأت تلك الغارات فى الازدهار .

وفى عام ٨٣٢ قامت قوة كبيرة من الفايكنج تحت قيادة تورجست بغزو إيرلندا وبعدها بسنتين نهبت مدينة أوترخت .

وفى عام ٨٥١ عانت كل من لندن وكنتربرى من نفس المصير . وأصبحت تلك الغارات

خلال الخمسين سنة التالية متواصلة ، وبات محققاً أن الفايكنج سيغزون شمال وشرق إنجلترا .

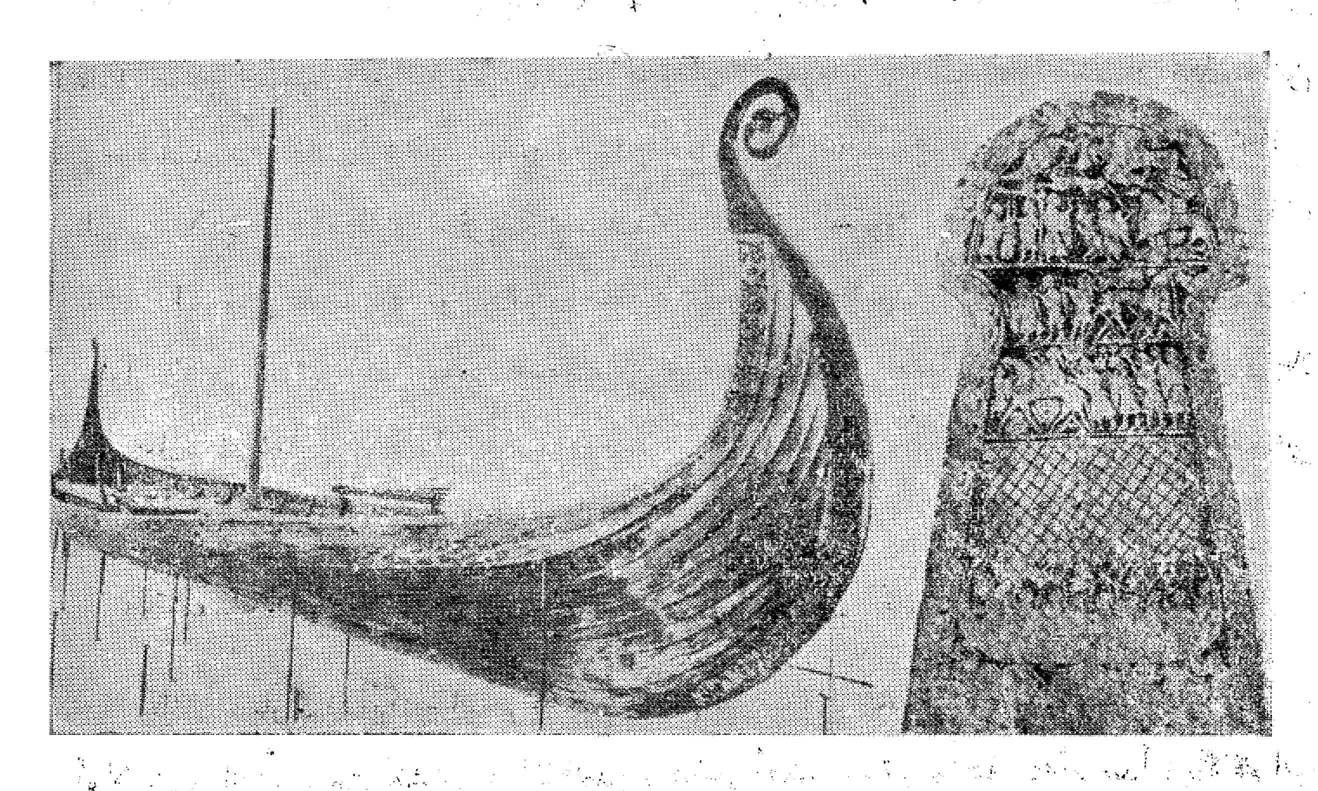
وفى عام ٩١١ استولوا على المنطقة التى صار تسميتها بـ « نورماندى » وذلك بعد أن تنازل لهم عنها الملك الفرنجى تشارلز البسيط .

وفى النهاية أصبحت إنجلترا جزءاً من الإمبراطورية الإسكندنافية ويحكمها الملك الداغركى كنوت (٩٩٥ — ١٠٣٥) . وفى نفس الوقت قام الفايكنج بالإبحار إلى إيسلندا وجرينلاند وأمريكا وأسبانيا والمغرب وإيطاليا ونوفوجراد وكييف وبيزنطه .

سفن الفايكنج

إذا نظرنا إلى قوة الفايكنج لوجدنا أنها تكمن فى براعتهم فى فن الملاحة البحرية علاوة على أن سفنهم كانت من أعظم ما حققوه من منجزات فنية وتعتبر من أكبر مظاهر فخرهم .

وكانوا علاوة على براعتهم فى الملاحة يتميزون بالجرأة وقوة الاحتمال .



سفن الفايكنج

وقد كشف التنقيب على أنواع كثيرة لسفنهم وأ كثرها إثارة النوع الذى يعرف بإسم « جوجشتاد » وهى إحدى السفن التى عثر عليها . ومازالت حتى اليوم محتفظ بهيكلها فى أوسلو وقد رأيتها بنفسى ويصل طولها إلى ٧٠ قدما وعرضها يبلغ ١٦ قدما وعمقها ٦ أقدام (من السياج إلى القاع) وكانت مبنية من الخشب البلوط ويصل وزنها إلى عشرين طناً ، وكانت على درجة عالية من التطور فى صناعتها .

لم يكن لهذه السفينة قاعاً على شكل ألواح مسطحة بل كان هناك عارضة قوية على شكل قطعة واحدة من الخشب تمتد فى القاع بمثابة العمود الفقرى للسفينة علاوة على أن مقدمة ومؤخرة السفينة يصنعان أيضاً من قطعة واحدة من الخشب ، وفى وسط السفينة توجد منصة يرفع عليها الصارى وطوله أربعون قدما ومصنوع من خشب الصنوبر ، أما الشراع فمن المرجح أن يكون شكله مربعاً ، أما لونه فالأساطير الأيسلندية القديمة تحكى عن أشرعة حمراء وأخرى زرقاء وبها شرائط حمراء . وكان يستخدم الشراع أثناء السير فى البحار أما عند القتال يطوى الشراع وتستخدم المجاديف .

وكان هناك ستة عشر صفاً من المجاديف ويصل طول بعضها إلى ستة عشر قدما والبعض الآخر أطول من ذلك ، وكل مجداف يعمل عليه رجلان . أما الدروع فكانت تعلق على طول سياج السفينة ومطلية إما باللون الأصفر أو الأسود . وكانت دفة السفينة عبارة عن لوح واحد من خشب البلوط مصنوعة على شكل يشبه شفرة مجداف كبير ومتصلة بجانب السفينة الأيمن بواسطة وتد على شكل حرف ٧ مثبت فى السفينة . ولم يكن هناك أى عارضات خشبية ليجلس عليها المجدفون ومن المحتمل أنهم كانوا يجلسون على صناديق أمتعتهم . ومع حلول القرن العاشر زاد حجم هذه السفن وأصبح البعض منها يحمل حوالى مائتى رجلا وتستطيع الإبحار لمسافة مائة وخمسون ميلا فى اليوم الواحد . أما الطعام فكان يحفظ على ظهر هذه السفن بواسطة الثلج والملح .

القتال المتلاحم والفايكنج (أنظر اللوحة رقم ١٤)

كانت معارك الفايكنج البحرية تقع دائماً بالقرب من الشاطىء وتتم فى ثلاث مراحل ، أولا يقوم القائد باستكشاف قوات العدو ويتخير أفضل موقع يهاجمه منه ثم يبدأ فى الاقتراب

منه مع استخدام المناورة للحصول على الاقتراب الملائم ، وكان دائماً يوجه القائد السفينة بنفسه خلال المعركة ، ومع ازدياد تقارب الأسطولين تبدأ عملية إطلاق القذائف ، وهى عادة عبارة عن وابل من السهام ، ولكن فى بعض الأوقات قد تكون كتل ثقيلة من الحديد أو الحجارة .

وفى النهاية يلقى الفايكنج بمرساة سفنهم لمسك سفن الأعداء ويبدأون فى حسم الموقف بالقتال المتلاحم .

وبعد انتهاء المعركة يبقى أسطول الفايكنج فى القاعدة التى شهدت المعركة البحرية وذلك إستعداداً لقيامهم بالغارات البرية . وعموماً كانت استراتيجية الفايكنج أن يبحروا فى طريق مائى هام ، والعيش بعيداً عن اليابس ونهب الأديرة والمدن التى تقع على شواطىء هذا الطريق المائى .

وعندما يصلون إلى مكان من المجرى لا يصلح للملاحة بعد ذلك أو يعرفوا بوجود تحصينات قوية تعترض طريقهم ، يتجهون بسفنهم إلى الشاطىء ويتركونها فى حماية حظائر من القضبان المدكوكة حولها ومعها بعض الحراس ، ثم يقوموا بالإغارة براً على المـــدن القريبة من الشاطىء .

وكانوا فى أيامهم الأولى إذا اصطدموا بقوة معادية كبيرة يعودون بسرعة إلى سفنهم وينطلقون عائدين إلى البحر ولكن فيما بعد أصبحوا أكثر جرأة .

وكان الفايكنج دائماً قليلى العدد وهدفهم الرئيسى النهب لذلك كانوا يتجنبون المعارك الكبيرة .

ولكنهم اعتادوا أخيراً بناء الحصون والمعاقل والقواعد التى عادة ما يعودون إليها بعد رحلاتهم الطويلة ومنها على سبيل المثال جزيرة أوسيل على مدخل نهر السين وبالقرب من روفين ، ونوار موتيير بالقرب من مدخل نهر اللوار ، وقلعة الشيرن التى استخدموها عند مهاجمة فلاندرز واستراسيا[1] . وكانت ثانيت (فى إنجلترا) من ضمن معاقلهم .

---

(١) الجزء الغربى من امبراطورية الفرنجة

وكان من الصعب جداً الإستيلاء على أحد هذه المعاقل والتى كانت عبارة عن حزام من المعسكرات المائية المحصنة بالأعمدة والخنادق ويدافع عنها جنود الفايكنج من حملة الفئوس .

وقد استطاع أرنولف[1] عام ٨٩١ الإستيلاء على إحدى حصون الفايكنج الهامة فى مستنقعات لوفان وقد اعتبر نصراً بطوليا . والأسباب الرئيسية لهذه المعركة أن الفايكنج استغلوا إنشغال أرتولف فى قتال السلاف على الحدود البافارية وقاموا بسلب وتخريب استرسيا مع ذبح عدد كبير من الفرنجة ، ولكن عندما وصلت هذه الأنباء إلى أرنولف عاد على الفور ويملأه الغضب والحنق وهاجم الفايكنج فى ديل وهزمهم . وبالرغم من أن معركة الديل كانت فى حد ذاتها غير ذات صبغة مميزة لأنها حدثت فى مستنقع وبالتالى لم تستخدم فيها فرسان الفرنجة إلا أنها كانت بالنسبة لى معركة ذات طابع مثير ، لأن مجابهتى الأولى للجيش الألمانى فى الحرب العالمية الثانية حدثت فى نفس هذا المكان .

فتيات الدروع

ومن المحتمل أن الفايكنج فى أول أمرهم كانوا فقيرى التسليح ، ولذلك كان من أهم أهداف إغاراتهم هو الحصول على الأسلحة والدروع ، وقد استولوا فى منتصف القرن على كميات غزيرة منها ، وتعلموا بعد ذلك فن صناعتها بأنفسهم .

وكان جميع محاربى الفايكنج يرتدون أردية طويلة من المعدن المجدول ، وفى بعض الأحيان كانت تماثل أرديه الفرنجة . وكانت الدروع التى يستخدمها الفايكنج فى البداية خشبية ومستديرة ، ولكنها تطورت حتى أصبحت رباعية الأضلاع وتطلى عادة بألوان ساطعة .

وسلاحهم الهجومى كان الفأس (البلطة) وتثبت على ساق المحارب ولكنها لم تكن التوماهوك الخفيفة التى كان يستخدمها الفرنجة . وكان الفأس سلاحاً قوياً وثقيلا له شفرة واحدة عريضة من الحديد ومقبض طوله خمسة أقدام ، وكان يكتب على تلك الشفرة بعض الحروف التوتونية القديمة التى تنطوى على معانى سحرية .

---

(١) أحد ملوك الفرنجة .

وكان الفايكنج يستخدمون أيضاً السيوف القصيرة والطويلة والحراب والأقواس الطويله والسهام ، ويعتبرون القوس من الأسلحة المفيدة والمشرفة لمن يستخدمها على عكس بعض الشعوب الأخرى مثل الإغريق . أما القوات الرئيسية للفايكنج كانت تشكل من المشاة ، لصعوبة نقل الخيول على سفنهم أثناء غاراتهم البحرية ، وبمجرد نزولهم إلى الشاطىء يأخذون فى جمع الخيول من المناطق المجاورة لاستعمالها كدواب النقل وتحقيق عنصر خفة الحركة . وكانت سياستهم دائماً دفاعية ، لأن قواتهم الرئيسية كانت من المشاة وتقاتل أعداء من الفرسان ولذلك كانوا يفضلون القتال فى تشكيل الدرع الساتر» وبالقرب من معسكرهم أو خلف مجرى مائى[١] أو على الجانب الحاد للتلال[٢] . وكانو يفضلون القتال مع أعدائهم من الفلاحين الذين يجندون على عجل وبذلك يستغل الفايكنج قواهم الجسمانية الكبيره للتغلب عليهم . وكان لديهم فئتين رهيبتين من المحاربين ، الأولى ويطلق عليها «البرسرك[٣]» أما الفئة الثانيه فكانت لا تقل غرابة عن الأولى لأنها كانت من فتيات الدروع[٤] ومثال لذلك البطلة فيبجورج والتى كانت ترتدى الخوذة والرداء المعدنى والسيف التى أخذت تهاجم به البطل سوكنارسوتى وتكيل له الضربات القاتلة حتى فصلت فكه السفلى عن وجهه مما أدى أن وضع لحيته فى فمه وعض عليها ليمنع ذقنه من السقوط ، وقد قامت هذه البطلة بأعمال أخرى فذة ولكنها فى النهاية سقطت متأثرة بجراحها .

القادة العسكريين الجدد لاوروبا

وفى نهاية القرن التاسع أدرك الفرنجة والإنجليز خطورة الفايكنج ، فحشد الفرنجة قوة كبيرة من الفرسان الأكفاء فكانوا الأمل الوحيد لكبح إنطلاق الفايكنج ، لأن هجوم الفرسان هى القوة التى تستطيع كسر درع الفايكنج الساتر ، وعلى كل فلم يتعلم الفايكنج فن حرب الفروسية إلا بعد فوات الأوان بالرغم من أنه فى القرنين الحادى والثانى عشر كانت سلالتهم من النورمانديين من أبرع فرسان أوروبا .

(١) كما حدث عند أدينجتون عام ٨٧٨

(٢) كما حدث عند آشدون عام ٨٧١

(٣) يرجح أنهم كانوا فرقة ذات تنظيم خاص من الرجال المجانين والمختلفين عقلياً ؛ وكانوا يتميزون بالقوة والشراسة . وعلى كل فكلمة برسرك تعنى المسعور شديد الهياج .

(٤) مجموعة من النساء ترافق أبطال الفايكنج ويمكن ن يتحولن إلى مقاتلات شرسات « المعرب »

وفى عام ٨٦٦ أصدر شارل الأصلع مرسوما يقضى بأن كل فرنجى لديه جوداً يصبح تحت الطلب للخدمة العسكرية ، ويمكن القول أن منذ هذا التاريخ وأصبحت المشاة غير ذات أهمية فى فرنسا .

وقد نجح شارل فى صد هجمات الفايكنج وذلك ببناء القلاع على طول أنهار السين واللوار والأوز ، ومن أهم هذه القلاع تلك التى شيدت فى باريس . وفى الفترة مابين ٨٨٥ — ٨٧٦ قاومت باريس بنجاح حصار الفايكنج الكبير ، وقد استخدم الفايكنج إلى حد كبير نفس أسلوب فن الحصار الذى استخدمه جوستينيان منذ ثلاثة قرون ، نفس الأبراج والمنجانيق والكباش ولمحاولة أحداث فتحات فى الأسوار وحفر الأنفاق تحت موقع العدو . وبعد أن حاصر (١) الفايكنج باريس مدة طويلة هاجموها ولكنهم فشلوا .

فى نفس الوقت كان الفريد العظيم فى إنجلترا يستخدم أسلوباً مماثلا من التحصينات القوية لصد هجمات الفايكنج الدنمركيين ، وعلى أى حال فقد أعتمد على المشاة الثقيلة من الأيليت بدلا من الفرسان . وقد أثبتت تلك المشاة جدارتها ، فقد انتصرت فى آشدون وإدينجتون . وقد قام باتخاذ خطوة جريئة والتى أهملها الفرنجة فى ذلك الوقت ، وهى بناء أسطول قوى على غرار سفن الفايكنج .

وقد حقق أسطول ألفريد نجحاً كبيرا ، ولذلك ظلت إنجلترا لمدة ألف وخمسين سنة بعد موته تتمتع بأسطولها القوى والتى اعتمد عليه اعتماداً مطلقاً .

وعلى كل لو ألقينا نظرة على جميع المسارح فى أوائل القرن الحادى عشر لوجدنا أن أوروبا بدأت فى ذلك الوقت تلتقط أنفاسها وبطريقة أكثر إطمئناناً بعد أن تحررت أخيراً من غارات البربر المتتالية والتى دامت سبعمائة وخمسون عاماً وبدون هوادة ، أما فى الشرق فقد ظلت الدولة البيزنطية لفترة قصيرة محتفظة بقوتها العسكرية التى حققها لها بازل ، أما فى الغرب فقد آل نشاط الفايكنج إلى النورمانديين الذين أوشكوا على أن يصبحوا القادة العسكريين الجدد لأوروبا .

---

(١) لم يكن الحصار حول باريس كاملا وليس من جميع الاتجاهات «المعرب»

وهكذا ينتهى الجزء الثانى من الكتاب ، أما الجزء الثالث فضمنه مونتجمرى الآتى : —

* صلاح الدين الأيوبى يوحد مصروسوريا .
* معركة حطين .
* اختطاف ريتشارد قلب الأسد .
* الحرب الصليبية .
* النساء يأكلن أطفالهن .
* عظام بايو المقدسة .
* ويليـــام الفـاتح .
* حرب المـائة عام .
* المباراة بين الجنة والجحيم .
* الصواريخ فى القرن ١٤
* ظهور جان دارك .
* القـــلاع المتحركة .
* الحمـــى الدبلوماسية .
* حرب الوردتين .
* مرجريت المجنونة .
* الملك البقـــال .
* القربينـــة .
* القراصنة المفوضين .
* الغليـــون .
* كنوز الأسطول الأسبانى .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء الثالث .

عميـد

فتحى عبد الله النمر

أسماء الفائزين فى مسابقة الجزء الأول

حل المسابقة :-

ج ١ : ١ — الروح القتالية العالية للجنود والضباط فى الميدان .

ج ٢ : ٢ — السياسيين .

ج ٣ : ٣ — البرازيل .

ج ٤ : ٢ — قبائل المايا من الطقوس الدينية

ج ٥ : ٢ — العراقيون .

ج ٦ : ١ — مدينة طيبة عام ١٦٣٠ ق.م .

ج ٧ : ٢ — أمينحوتب الأول .

ج ٨ : ٢ — تحتمس الثالث وملك قادش .

ج ٩ : ٣ — هو ديونيسيوس الأول .

ج ١٠ : ٢ — فيليب .

الجـوائز :-

الجائزة الأولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٣٣٣

باسـم : الأستاذ فتحى فولى محمد

العنوان : مدرس أول اللغة الإنجليزية بمدرسة الطبرى ـ منشية البكرى

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٦١٨٦

باسـم : مهندس / محمد إسماعيل محمد

العنوان : مصنع السكر ـ كوم أمبو

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٥٧٢٠

باسـم : محمد نزار كامل زغموت

العنوان : ٨٧ ش سراى المنيل شقه ٦٦

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه وعددها ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة ١٢٧٢

باسم : رائد نبيل محمد ماهر رفعت

العنوان : ٢٤٣ ش الحجاز شقه ١٤ ـ مصر الجديدة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٩٤٧

باسم : نانى أحمد وهيدى

العنوان : ٨ ش حمزة عليش شقة ٢٣ ـ منشية البكرى

٣ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣٣٥٨

باسم : عدلى فؤاد سيفين بشاى

العنوان : الشاطبي / جامعة الإسكندرية ـ الإسكندرية

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد (عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* هذا الكتاب يقع فى سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتجمرى لكل جزء مسابقة وجوائز مالية ، فمن لم يسعده الحظ فإلى اللقاء مع مسابقة جديدة فى الأجزاء التالية التى تظهر فى أول كل شهر .

مسابقة القراء

		عـــدد
الجائزة الأولى : —	١٠ جنيهات مصرية	١
الجائزة الثانية : —	٣ جنيهات مصرية	٢
الجائزة الثالثة : —	٢ جنيـــه مصرى	٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارىء أن يضع علامة (√) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم أختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع فى مظروف عليه طابع بريد وترسل فى بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالى :ـ

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين فى الجزء التالى للكتاب .

٥ — لقد رصد الفيلد مارشال مونتجمرى الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

المســابقة

نمرة ٨ ٠٠١٥٨٦

١ — من أشعل الحرب القرطاجية الثانية ؟

١ — سـيبيو .

٢ — هانيبال .

٣ — أتيـلا .

٢ — « تحطمت الشجاعة على صخرة النظام » من قال هذا ؟

١ — بومـبي .

٢ — ليدل هارت .

٣ — فـوللر .

٣ — الفراميا عبارة عن

١ — درع واقية للصدر .

٢ — حربة قصيرة ذات رأس حديدية مدببة وحادة .

٣ — خوذة معدنية تغطى الرأس والعنق .

٤ — لقد اسر فاليران عام ٢٦٠ بواسطة

١ — جالينـوس .

٢ — أورليان .

٣ — سـابور .

٥ — لقد هزم القوط الامبراطور فالنس عام ٣٧٨ في معركة

١ — أدريانوبل .

٢ — بيزنتيـوم .

٣ — كارولين .

٦ — اول من استخدم « الطعم الحى » .

١ — أتيـلا .

٢ — بليزارتوس .

٣ — ألريك .

٧ — من كان يقود القوات الاسلامية فى معركة اليرموك عام ٦٣٦ ؟

١ — عمر بن العاص .

٢ — خالد ابن الوليـــد .

٣ — أبو بـكر الصديق .

٨ - لقد هوجمت القسطنطينية عام ٧١٧ بواسطة

١ — كسرى .

٢ — الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث .

٣ — القائد العربى مسلمة .

٩ — تاجما عبارة عن

١ — مجموعة من الأفراد تسير مع الجيش دون أن يكون لهم صفة المقاتلين

٢ — وحدة تتـكون من ٤٠٠ جندى .

٣ — بلطة لها حدين ، قاطع وآخر مدبب .

١٠ — لقد استولى نقفور فوكاس عام ٩٦٥ على

١ — **أنطاكية** .

٢ — طرسوس وقبرص .

٣ — كريت ومالطة .

الاسم ________________________________

العنوان ________________________________

____

____